# إلــهُ جدّتــي

مـركـزيـة اللّه في الألـم والخـلاص

دانـي بـرمـاوي

تقديم
ستيف براون

# إلـــهُ جدّتـــي

## مـركـزيــة اللّه في الألـــم والخـــلاص

دانــي بــرمــاوي

تقديم
ستيف براون



500 PLUS

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠

الكتاب: إلهُ جَدّتي

المؤلّف: داني برماوي

تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: kreactiv.net

مراجعة لغويّة: بولس رعد

الهاتف: 96171981341+

البريد الإلكتروني: info@500-plus.com

موقع إلكتروني: 500-plus.com

الترقيم الدولي: ISBN 978-9953-0-5148-2

كلّ النصوص الكتابيّة مأخوذة من ترجمة «البستاني فاندايك».

جميع حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة للناشر وحده. ©

ولا يجوز استخدام أو اقتباس أي جزء منه من دون إذن الناشر.

وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

# إلـــهُ جدّتـــي

مـركـزيـــة اللّه في الألـــم والخـــلاص

# الفهرس


توطئة ..... ١٥
مُقدّمة الكاتب ..... ١٩

**الفصل الأوّل: سيادة الله المُطلقة ..... ٢٧**

ثيودوسيا ..... ٢٩
الإرادة الحُرّة ..... ٣٥
سماح الله بالألم ..... ٤٣
تأثير الفراشة ..... ٥١
ليكُن اللهُ الله ..... ٥٧

**الفصل الثاني: الثالوث الثاني ..... ٦٩**

العنصر الناقص ..... ٧١
الثالوث الثاني ..... ٧٥
التقديس ..... ٩٥

**الفصل الثالث: النعمة المجّانية ..... ١٠٣**

قوّة تأثير الدين ..... ١٠٥
غاية الناموس ..... ١٠٩
العصا والجزرة ..... ١١٥
النعمة والألم ..... ١٢٧
التخلُّص من الدين ..... ١٣١
ارمِ الصليب واتبعني ..... ١٣٥
الخوف من الإنجيل ..... ١٤٥

ما يتضمّنه هذا الكتاب فريد من نوعه في لغتنا العربيّة. هو نابع ليس فقط من مفكّر متعمّق، بل من إنسان يتحدّث من كيانه ومن وجدانه، ويعبّر عن قناعات عميقة في مضمونها الشخصيّ الوجوديّ. فما يكتبه ليس مجرّد ما وصل له من وعيٍ لاهوتيّ متعمّق، بل هو مزيج ممّا وصل إليه من استنتاجات فكريّة واختبارات وجوديّة، يعبّر عنها بعفويّة صادقة، بعيدًا عن بغضٍ لماضٍ اقتنع بظلاميّته المدقعة، وعن تبرير تبسيطيّ لقناعاته الحاضرة. بارَك الرب هذا الكاتب الشابّ بموهبة نادرة في الكتابة، مكّنته من وصل القارئ بخواطره الشخصيّة وقناعاته اللاهوتيّة العميقة بدون تكلّف.

**القسّ الدكتور فيكتور عطا الله**

**مؤسّس خدمة الإصلاح الإنجيلي في الشرق الأوسط MERF**

**وراعي كنيسة International Evangelical Church**

**في لارنكا – قبرص**

يتمخّض الكاتب بسؤال فلسفيّ كبير طالما تردّد على ألسنة الأنبياء والمفكّرين والناس على حدّ سواء. لماذا الشرّ؟ هل لله دور في ألم الإنسان؟ هل الله ظالم؟ أسئلة وجوديّة فلسفيّة، يصل بنا الكاتب من خلالها إلى رفع لواء سيادة الله المطلقة ونعمته المجّانيّة. لا يرضى الكاتب تنصيب فكرة الإرادة الحرّة للإنسان على عرش السيادة، باعتباره مسبّبًا أوّل للألم. ولا يرضى أيضًا لأيّ أفكار أخرى أن تُنزل الله عن عرشه، وتجعل أفعاله مجرّد ردود أفعال ليس إلّا. يرى الكاتب أنّ عقيدة القدريّة هي شرّ كبير، ويوضّح اختلافها عن عقيدة سيادة الله المطلقة التي تأخذ من أفعال البشر وتصنع التاريخ من خلالها.

لقد خلع الطفل الباكي ثوب إله الجدّة، ولبس ثوب إله النعمة، ليَخُطّ هذه السطور بقلم كاتب ماهر. نرجو له مستقبلًا باهرًا في خدمة ملكوت السيّد الربّ.

**القسّ الدكتور صموئيل خرّاط**

**رئيس الطائفة المعمدانيّة في لبنان**

**وراعي كنيسة بكفيّا المعمدانية**

## تقديم

«إلـه جدّتي»، اختبار حيّ يُخرِجُه الكاتب داني برماوي إلى الواقع عبر تسليط الضوء على حقائق كتابيّة أساسيّة ضمن إطار جذّاب قابل للبحث والمناقشة. يتحدّث الكاتب في اختباره للنعمة الإلهيّة، عن مدى ارتباط مواضيع الألم والخلاص بقضايا سلطان الله المطلق وقداسته، وعن دور الناموس الموسويّ، وكمال عمل المسيح النيابي. تميّزت مواضيع الكتاب بارتباطها الوثيق بتحديد مفاصل الوصف اللاهوتي، وجمال الأسلوب القصصي، ومرونة السرد المتتابع، لتجعل منه رسالة عمل على طاولة البحث والمناقشة.

**إيلي خرّاط، محامٍ وناشط،**

**الأمين العام لخدمة الطُلّاب الجامعيّين**

**في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا**

# تقديم

نحن أمام كتاب يتناول أسئلة وجوديّة حول كيف ننظر إلى الله؟ ما هي صفات الله الذي نؤمن به؟ وما هو تأثير نظرة الإنسان إلى الله على نوعيّة حياته وتصرّفاته اليوميّة؟ نحن أمام كتاب يحاول فيه الكاتب تقديم إيمانه عبر شرح عقائد إنجيليّة أساسيّة مُصلِحة أُعيدَ التركيز عليها في الماضي، وإنّما في سياق عصريّ مأخوذ من حياة الناس وقصصها في زمننا الحاضر. يميّز الكاتب بين مفاهيم أساسيّة تحتاج للدقّة في التمييز، وبين الايمان بالقدريّة والإيمان بسيادة الله، وبين التقديس والتبرير، وبين دور الله ودور الإنسان، وغيرها من التمييزات اللاهوتيّة الهامّة. خلاصة القول إنّ الكاتب، وبدون أيّ نفي لمسؤوليّة الإنسان، يؤكّد على مبدأ إيمانيّ هامّ هو أنّ حياة الإنسان ومصيره غير محكوم بأحداث عشوائيّة تصيبه، إنّما تستند إلى كون الإنسان موجود في فكر الله وقلبه.

**القسّ سهيل سعود. كاتب،**
**راعي كنيسة رأس بيروت المشيخيّة**

# توطئة

نشرت مجلّة First things في عددها الصادر في أيّار ٢٠١٩ مقالًا للكاتب المسيحيّ السابق جاكوب ويليام بعنوان: «لماذا أصبحت مُسلمًا؟» أمّا صديقي داني برماوي، فقد ذهب في الإتّجاه المُعاكس وأصبح مسيحيًّا. المثير في الأمر أنّ كليهما، جاكوب وداني، اعتنقا إيمانًا جديدًا للسبب نفسه، محاولة إرضاء الله لتفادي الألم، والبحث عن الخلاص المادّيّ والروحيّ، والوصول للنعيم الأبديّ. أراد جاكوب وداني أن يحصلا على ذلك من خلال ممارسة الدين عبر طاعة وصايا الله، والخضوع لمشيئته، والاستعداد للتضحية في سبيله. قضى داني برماوي عدّة سنوات في إيمانه الجديد قبل أن يكتشف أنّ العقيدة التي ترتكز على الإنسان ستصل دائمًا بمن يعتنقها إلى حائط مسدود وإلى فشل ذريع. وأنا على يقين بأنّ عَرَبة الدين التي ركبها ويليام منذ عدّة أشهر ستقوده إلى المحطّة نفسها بلا شكّ.

يُقدّم لنا داني برماوي في هذا الكتاب الرائع، وهو ليس رائعًا للأسباب التي تتخيّلونها، نظرةً كتابيّةً مُعمّقة لطبيعة الله ولصفاته، وسلطانه وسيادته، ومحبّته وغفرانه. تلك الصورة عينها

التي رآها بولس الرسول عندما صرخ «ويحي أنا الإنسان الشقيّ. من يُنقذني من جسد هذا الموت؟» (رومية ٧: ٢٤)، هذا الجسد الذي يَظُنّ بأنّه يقود الأحداث ويُسيطر عليها.

أدرك داني برماوي، كما أدرك بولس الرسول الذي كان يرتدي ثياب التديّن يومًا ما، أنّ الإنسان عاجزٌ عن فعل أيّ شيء في وجه الإله كُلّي القُدرة والسطان والوجود، وأنّ أفعاله وأفكاره لا تستطيع أن تُغيّر شيئًا في مصيره الوقتيّ والأبديّ. هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب للبكاء وللضحك، للألم وللفرح معًا. هو بالتأكيد ليس كتابًا لدعوة المُتديّنين لمزيد من التديّن؛ فالحُبّ والفداء والحُريّة، بضاعة غير موجودة في متجر الأديان.

لقد استسلم الكاتب لعجزه، وألقى نفسه خارج عربة الدين، ليتلقّفه قطار الأذرع الأبديّة، لكنّ ويليام (ومئات الملايين من المسيحيّين والمسلمين) ما زالوا يحاولون الوصول بعد أن تحطّمت العربة الوهميّة. أمنيتي الشخصيّة أن يصلوا لما يبتغون، رغم أنّه لم يصل أحد من قبل سيرًا على الأقدام.

كان الفيلسوف ديجانوس الكلبي يحمل مِشعلًا ويسير به في الشوارع بحثًا عن رجل صادق، لكنّه أطفأه وعاد للبيت مبتسمًا

بعد أن كتب داني برماوي هذا الكتاب. إن كنتَ متعبًا ومتألّمًا، إن كنت تشعر بالفشل، إن كان غضبك تجاه الله يُسيطر عليك وأنت على وشك النزول من عربة الدين، فهذا أمرٌ جيّد. خذْ هذا الكتاب واستسلم، واترك قطار الأذرع الأبديّة يأخذك حيثُ يشاء.

**ستيف براون. كاتب ومقدّم برامج إذاعية،**
**بروفيسور في الدراسات اللاهوتيّة ومؤسّس خدمة KeyLife**

# مُقدّمة الكاتب

لا أعلم السرَّ الذي كانت تخبّئه تلك المرأة، ولكنّي لم أرَ أحدًا يذكُر الله كما كانت تذكره. لقد راقبتُ وجهها الحزين لما يزيد عن الثمانية عشر عامًا، وهي تلجأ إلى الله خالق السماوات والأرض صباحًا ومساءً تُسبّحه وتُعظّمه. لم تشتكِ يومًا منه رُغم كلّ آلامها. بل كان قلبها عند كلّ مصيبة قابلًا وشاكرًا لقضاء الله وحكمته. لا أستطيع أن أتذكّرها في أيّ موقف من دون أن أراها تحمل مسبحتها الطويلة وتتمتم بالتسبيح والحمد. لا يوجد مشهدٌ مرتبطٌ بها خالٍ من وجود الله بشكل أو بآخر. ولكن، أكثر اللحظات المحفورة في ذاكرتي عمقًا، كانت تلك التي تسبق طلوع الشمس حين أستيقظ على صوت همساتها وهي تستعدّ لصلاة الفجر، وتناجي الله بذلك الدُعاء الذي لن أنساهُ ما حييت: «اللهمّ اجعل يوم وفاتي دافئًا، وليكُن كفني حاضرًا، وخذني وأنا بعد في صحّتي.» لقد رفعتْ جدّتي وجهها نحو السماء كلّ صباح لسنوات طويلة، وطلبت من الله أن تموت وهي في كامل صحّتها، لكيلا تُكدّر حياة من سيضطرّ للاعتناء بها إن أصابها شيء، وأن يكون يوم وفاتها صيفيًّا دافئًا، لكيلا

تُتعب من سيسير في جنازتها. وأن يكون كفنها موجودًا لكيلا يكون ثمنه عبئًا على أبنائِها.

وفي يومٍ عاصفٍ من أيّام شباط، ماتت جدّتي وهي مُمدّدةٌ على فراش المرض، بعد أن احترق قلبها وهي ترى الله يدوس بكلّ قسوةٍ على صلواتها البسيطة تلك. حتّى إنّها ماتت قبل أن يُمكّنها الله من مبلغٍ صغير تشتري به كفنها. وعند تلك الحفرة القبيحة التي احتوت جسد جدّتي، وقفتُ أبكي حتى اختلطت دموعي بدموع السماء. لقد رحلت تلك التي أحبّتني أكثر من أُمّي، وأحبّت الجميع بلا استثناء. بل هي كانت الاستثناء لأنّها كانت تُفضِّل سعادة الجميع على سعادتها. ربّما يصف كلُّ من يُحبّ جدّته بهذه الصفات، ولكن كم جدّةً تُصلّي مثل تلك الصلاة؟

اختفت جدّتي تحت التراب إلى الأبد. وسيرحل كلّ من كان يقفُ أمام القبر بعد قليل، وستبقى وحيدةً في ذلك الظلام. في تلك اللحظات، كان قلبي يخاطبها: كيف حالُك الآن يا جدّة؟ لقد فاتك موعد صلاة العصر، لعلّ هذه أوّل صلاةٍ تفوتُكِ، يا حبيبتي، منذ سنين طويلة! سأشتاق إليك وإلى يدكِ الناعمة وإلى ابتسامتك اللطيفة. ظهرت أمامي كلّ تلك الذكريات التي جمعتني

بجدّتي، حتّى قاطعها صوتُ إمام مسجد القرية يفتتح خطبته التي اعتدتُ سماعها عند كلّ جنازة. لقد تعوّدت وقت الجنائز أن أركضَ مع الأولاد بين القبور نقرأُ ما كُتب على شواهدها. لم أكن أهتمّ لما يقوله الشيخ بعد الدفن. لكنّ الأمر مختلف هذه المرّة، لأنّ الميت هو جدّتي. استمعت إلى ما قاله الشيخ عن الحياة والموت، وعن الفروض والطاعات، وعن الالتزام الديني. وفي النهاية، دعا الله لجدّتي أن يُخفّف عليها ظلمة القبر، وأن يتقبّلها برحمته، وأن يُنجّيها من عذاب النار!

سرتُ بعيدًا عن المقبرة حتّى وصلتُ إلى غرفة جدّتي الصغيرة حيث ثيابها وفراشها. بكيت وأنا أحتضن ثوبها ووسادتها. لم أستوعب أيّة قسوةٍ تلك التي تحكُم بالألم والشقاء على إنسانةٍ بطيبة جدّتي طيلة سنيّها الثمانين، فقد كان نصيبها من المعاناة في حياتها كبيرًا. وأيّ قلب متحجّر يضرب بعرض الحائط طلباتها البسيطة المتواضعة؟ وأكثر من ذلك، أيّ إلهٍ ظالم ذاك الذي أعدّ لها قبرًا مظلمًا ورُبّما جحيمًا أبديًّا؟ منذ ذلك اليوم أصبح للطفل في داخلي قضيّةٌ عنوانها «إله جدّتي» وتفاصيلها أسئلةٌ كثيرة: من هو؟ ولماذا خَلَقنا؟ ولماذا الألم؟ وما الذي يُحدّد من يذهب إلى النعيم ومن يذهب إلى الجحيم؟

لقد نشأت في مجتمع بأغلبيّة مسلمة ساحقة تتبع المذهب السُنّي. لا أذكر على الإطلاق أنّي تعرّفت بشخص من طائفة أو ديانةٍ أخرى قبل أن أبلغ الثامنة عشرة، إذ كانت الأقليّات الدينيّة تشكّل نسبةً بسيطةً فقط من السكّان، ولم تجمعني أو عائلتي أو أيّ شخص أعرفه على الإطلاق علاقة بأيٍّ منهم. أذكرُ أنّ صاحب أحد المحال في القرية قام بتوظيف لاجئ عراقيّ من الطائفة الشيعيّة، فكان كثيرون من السُكّان يذهبون إلى ذلك المحل لمجرّد النظر كيف يُمكن أن يكونَ شَكل ذلك الشيعيّ! ففي مجتمع مثل هذا، هنالك فكرٌ واحدٌ عن الله والجميع يؤمنون به. وليست هذه حال قريتي فقط، بل هي حال المجتمع الإسلاميّ عمومًا. لذلك، فإنّ النقاش في أمور الله الثابتة أمرٌ ممنوع، والجِدال في الثوابت حرام. وتكاد مساحة الاختلاف أن تكون مُنعدمة. هذه هي البيئة حيث المدرسة والمسجد وقناة التلفزيون المحلّية تُلقي خطابًا دينيًّا واحدًا. ويُصبح مجرّد التأمُّل في أيّ فِكرٍ مختلفٍ عمّا يؤمن به البقيّة ضربًا من الجنون.

ولكن لم يطُل الأمر حتّى اقتحمت مئات القنوات الفضائيّة حياتنا، ثمّ تبعتها الإنترنت، ذلك الباب الذي لم يستطع أحدٌ إغلاقه. وهنا كانت البداية: مئات المنابر الإلكترونيّة التي تُجاهر

صراحةً بكلّ ما هو ممنوع ومُحرَّم، ولا تخشى البوح بأشياءَ لم أعلم بوجودها أصلًا. وهذه المنابر، ملعب الحُرّية التي طالما حُرمنا من دُخوله في هذا الشرق السجين، هي المدرسة التي تمنع الأستاذ من فرض عقليّته الرجعيّة على التلاميذ، وهي بيت العبادة وفيه رجُل الدين لا يقف في محرابه، بل بين المصلّين.

تعبتُ من التفكير وحيدًا في قضيّة إله جدّتي حتّى جاءت نسمة الحُرّيّة من شبّاك تلك المنابر، وأخرجتني من غرفتي الضيّقة إلى ساحة التنوّع، حيث تلتقي قضيّتي مع ملايين القضايا الأخرى لتكون جزءًا من صدامٍ قديمٍ جديد، ولتمنحني الحقّ في أن أشترك في رحلة البحث التي يجب أن يتجنّد في صفوفها كلّ من وطئ الثرى. صحيحٌ أنّ الإنسان هو إنسان مهما كانت الملّة التي ينتمي إليها أو الدين الذي يعتقده؛ وصحيحٌ أنّ صراعاته وآلامه متشابهة كالشمس التي تُشرق على الصالحين والطالحين؛ لكن توجد في وجه أهمّ الأسئلة الوجوديّة إجاباتٌ وتفسيراتٌ كثيرة. والاكتفاء بإجابة واحدة وتفسير واحد مدى الحياة من دون فحص وتمحيص، إنّما هو احتقار لإنسانيّتنا.

ولأنّي إنسانٌ أوجدَتْهُ الأقدار في مدينةٍ كلّ سُكّانها يشبه بعضهم بعضًا، ولهم ذات اللون والرائحة، اخترت الرحيل إلى

مدينةٍ جديدة حيثُ يرتدي أهل كُلّ شارعٍ فيها زِيًّا مُختلفًا. ففي مدينتي السابقةِ، لم يكن يَحِقّ لأحدٍ أن يخلع الثوب الذي ورثه عن الأجداد. وإن فعل ذلك، يُوسَم بأنّه متمرّد عاقٌّ، وخائن يستحقّ الموت، ويَكسُر قلب أمّهِ ويتجنّبه كلّ أصحابه. وإن نجا من سيف السلطان أو من مطرقة فُلان، يُنظر إليه على أنّه مجرّد نكرة خلع ثيابه وسار عاريًا لضعفٍ في نفسه، أو لطمعٍ في مكسب. ولكن يعلم الله أنّي خلعت ثوب جدّي لأنّه مهترئ لا يستر من شمس السؤال ولا يدفئ من برد الخوف. وفي ترحالي بين المُدن، لم ألبس ثوبًا لكي أُرضي أحدًا، ولا لكي أملأ زوادتي بالماء والطعام والذهب. بل كنت صادقًا مع نفسي مُخلصًا في بحثي. وفي كُلِّ مرّة كُنت أظُنّ أنّ الرحلة قد انتهت، وجدت نفسي أبدأ من جديد. واليوم لا أدّعي أنّ رحلة اكتشاف ذاتي ومعرفتي بالله قد خُتمت، بل كلّ يوم تُضاف خيوطٌ جديدة إلى الثوب الذي أرتديه، وكلّ يوم أكتشف اهتراءاتٍ من هنا وهناك، تحتاجُ إلى إزالة وتمحيص وتعديل وإصلاح.

يحتوي هذا الكتاب على الأجوبة التي وجدها ذلك الطفل الباكي خلف باب جدّته في الكتاب المُقدّس (التوراة والإنجيل)، أجوبة عن الألم وعن علاقة الله به، وعن الإنسان وطبيعته ومصيره،

وعن الفادي الذي جاء في ملء الزمان لانتشال الإنسان من الضياع والتيه، حيث يُعالج الفصل الأوّل السؤال عن سبب عدم تدخّل الله لإيقاف الشرّ والألم في العالم، فيستعرض بشكل مختصر التفاسير المختلفة التي قدّمتها الأديان، ثم يضع أكثر الأجوبة الدفاعيّة شيوعًا قيد الفحص المنطقيّ البحت، قبل أن ينتقل إلى الدائرة الضيّقة ليستعرض الإجابة الأكثر انتشارًا في الأوساط المسيحيّة والمُشكلات التي تطرأ عنها. يُقدّم بعدها الكتاب تحليلًا موضوعيًّا يضعنا أمام خيارَين لا ثالث لهما، ويتحدّث عن النتائج الحتميّة لمحاولة الالتفاف على هذين الخيارين. وفي النهاية يُقدّم ما يُعلّمه الكتاب المُقدّس عن سيادة الله المُطلقة.

ويُكمل الفصل الثاني حيث ينتهي الأوّل، فيتحدّث عن النتائج الوخيمة المترتّبة عن الاعتقاد بما خَلُص إليه الفصل الأوّل من دون الإيمان بباقي الإعلان الإلهيّ، فيُقدّم شروحات مختصرة لأسس الكتاب المُقدّس بخصوص الله والإنسان والعلاقة بينهما، ومن ثَمَّ يصل في النهاية إلى الحديث عن طبيعة عمل المسيح ونتائجه. أمّا الفصل الثالث فيُكمل الحديث عن استحقاقات عمل المسيح، وما قدّمه لكلّ مَنْ هم له، وعن النعمة المجّانية التي منحنا فيها الله كلّ ما نحتاج إليه، ويخاطب الذين يخافون

من الإنجيل أو يحاولون تغييره، فيُحلّل أسباب ذلك الخوف قبل أن ينتقل إلى طمأنتهم وتشجيعهم.

أرجو أن تجد هذه السُطور طريقها إلى قلوب المتألّمين والباحثين عن إجابة، وأن يسمحوا للكتاب الذي يحتويها بأن يُكمل حديثه حتّى النهاية.

**داني برماوي**
**بيروت في الأوّل من حزيران ٢٠١٩**

# الفصل الأوّل

## سيادة الله الـمُطلقة

اجْعَلْ أَنْتَ دُمُوعِي فِي زِقِّكَ.
أَمَا هِيَ فِي سِفْرِكَ؟

# ثيودوسيا

هنالك ثلاثة أنواع من الناس: أولئك الذين سبقَ أن تألّموا في حياتهم، والذين يتألّمون الآن، والذين سيتألّمون عمّا قريب. فمنذ لحظة ولادتنا، نبدأ نتذوَّق طعم الخسارة. فكلّ يوم نجد الفرصة متاحة لكي نختبر مقدارًا من الألم، حيث يأخذنا قطار الحياة عبر محطّات كثيرة، فيها نرى أحبّاءنا وهم يغادرون هذا العالم واحدًا تلو الآخر، ونخسر صحّتنا وشبابنا، وأصدقاءنا وعائلاتنا. ستُجبرنا الظروف أن نَخذُل من نُحبّ، أو أن نقف عاجزين أمام آلامهم. ومهما كنّا حريصين، سيصيبنا الألم لا محالة، وسيقرع الحزن بابنا حتمًا.

إنّ السؤال الأساسيّ الذي طرحَه الإنسان منذ أقدم نقطة في التاريخ هو: لماذا يوجد في العالم كُلّ هذا المقدار من الألم والمعاناة؟ وإن كان هنالك إله، فكيف يمكن أن يكون كُلّي القدرة وكُلّي الصلاح وكُلّي المعرفة، بينما يترُك العالم يتخبّط بهذا الشكل الفظيع؟ لخّص الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم المُشكلة كالتالي:

«هل يُريد الله أن يوقف الشرّ ولكنّه لا يستطيع؟ إن كان

كذلك، فإنّه ليس كُلّي القُدرة. هل هو قادر ولكنّه لا يُريد؟ إذًا فهو ليس كُلّي الصلاح. هل هو قادر ويُريد؟ فلماذا يوجد شرّ؟»[١]

وُضعت نظريّاتٌ مختلفة لحَلّ هذه المعضلة، وقدّم العلماء من كُلّ الأديان شُروحات لتفسير وجود إله صالح كُلّي القدرة ووجود الشرّ في العالم معًا. وأُطلق اسم ثيودوسيا، أو نظريّة العدالة الإلهيّة ووجود الشرّ، على كُلّ مُحاولة للإجابة عن السؤال القائل: لماذا يسمح الله بوجود الألم.[٢]

## ثيودوسيّات مُتعدّدة

تصوَّر المصريّون القدماء والرومان والإغريق وجود إله صالح في مواجهة مع إله شرّير Dualism، أو وجود عدّة آلهة تتقاتل فيما بينها Polytheism، أو نسبوا ببساطة إلى آلهتهم بعض العيوب كالغيرة والسعي إلى الانتقام.[٣] ولا توجد مشكلة أساسًا في مثل هذه المعتقدات وما يُشبهها، حيث يغيب عن عناصرها الإله

---

١ David Hume, "Dialogues Concerning Natural Religion", Penguin Classics, 1990, p. 44

٢ استَعمَل هذا المُصطلح لأوّل مرّة الفيلسوف الألماني غوتفريد ليبنز في كتابه:
"Theodicy: Essays on the Goodness of God, the Freedom of Man and the Origin of Evil"

٣ Jan Assman, «The Search for God in Ancient Egypt». Translated by David Lorton, Cornell University Press, 2001, p. 169

كُلّي القدرة والصلاح والمعرفة معًا، وبالتالي تنتفي الحاجة إلى إيجاد تفسير.

امّا في الأديان التي تؤمن بوجود إله كُلّي الصلاح والقدرة كاليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، فالمعضلة موجودة وتحتاج إلى حلّ، حيث يفرض ذلك الإيمان وجودَ إله واحد كُلّي القُدرة والصلاح. قدّمت القراءات اليهوديّة لأسفار العهد القديم التي تتعامل مباشرةً مع مشكلة الألم والشرّ، كأيّوب وأشعياء وحزقيال، تفسيرات متنوّعة منها ما تجنّب الصراع للبحث عن سبب، واكتفى بمحاولة إيجاد علاج لمعاناة الإنسان. ومنها ما قدّم تبريرات تتقاطع مع الرؤية المسيحيّة التي تُعزي سبب الألم في العالم إلى سقوط آدم من الجنّة، وإلى إرادة الإنسان الحُرّة وعصيانه المتكرّر لله. وفي الإسلام، تبنّى المعتزلة الذين أثّروا بشكل أساسيّ في المذهب الشيعيّ عُنصرَي الإرادة الحُرّة والعقاب الإلهي في تفسيراتهم أيضًا، في حين أنّ المدرسة الأشعريّة التي يتبعها المسلمون السُنّة، والتي تتلامس مع القدريّة في كثير من الأحيان، علّمت أنّ محدوديّة الإنسان تقف عاجزةً أمام سموّ الله، ويجب على الإنسان التسليم لأحكامه من دون الخوض في السؤال.

## البحث عن جواب

رُغم أنّ محاولة العثور على تفسير لوجود الله والشرّ معًا أمر لاهوتيّ تختصّ به الأديان لكي تواجه الفلسفات التي تدّعي أنّ الكون بلا معنى، إلّا أنّه أيضًا أمر أساسيّ وشخصيّ لكلّ إنسان مؤمن بوجود الله، بغضّ النظر عن ثقافته وتعليمه. لقد رفع المسيح نفسه عينَيه نحو السماء وطلب جوابًا من الله (متى ٢٧:٤٦). كذلك هو حال كلّ إنسان في وقت الألم. وسواء كانت أمورًا صغيرة أم كبيرة، يرفع عينيه دائمًا نحو السماء ويصرُخ طلبًا للتوضيح!

لفتت انتباهي منذ فترة مقابلة عبر التلفزيون مع أحد الفنّانين. كان يتحدّث فيها عن فترة المُراهقة، وعن الألم الذي تعرّض له عندما تزوّجت حبيبته من رجل آخر. وروى كيف صعد إلى قمّة أعلى جبل في منطقته حينذاك، ورفع يديه وصرخ بأعلى صوته "لماذا يا ربّ؟". فسواء كنّا مراهقين أم عجزة، شيبًا أم شبابًا، وسواء كانت قصّة حبٍّ طفوليّة أم حرب إبادة، يظلّ السؤال هو نفسه: لماذا يا ربّ؟

إنّ الإجابة الرئيسيّة التي يتقاطع عندها عدد كبير جدًّا من الأديان والفلسفات الوجوديّة هي إرادة الإنسان الحُرّة. أي أنّ

الله لا يتدخّل لإيقاف الشرّ احترامًا لإرادة الإنسان الحُرّة التي منحه إيّاها. ولو تدخّل، لفَقَد الإنسان إنسانيّته وأصبح مثل الرجل الآلي، وبالتالي سيفقد وجوده معناه. لذلك، سنضع في الصفحات القادمة هذه الإجابة تحت مجهر المنطق الإنسانيّ، حيث إنّها مشتركة بين مجموعة كبيرة من الأديان، وسنرى معًا إن كانت قادرة بالفعل على الثبات في وجه عاصفة الأسئلة التي طرحها الإنسان عن الألم والشرّ، أم أنّها مجرّد رمال متحرّكة لا يأمن من يقف عليها من الخوف يوم يحلُّ عليه الحُزن ضيفًا ثقيلًا يأبى الرحيل؟

> نحن نحوّل الألم إلى معاناة عندما نضيف إليه كُلّ أنواع المعتقدات والتفاسير والأحكام

# الإرادة الحُرّة

عند وقوع جريمة قتل، ينصبّ التركيز على هُوّية القاتل، وهُوّية المقتول، ولماذا ارتُكبت الجريمة. لكنّ الأمر لم يكن كذلك في جريمة قتل وقعت في بيروت منذ عدّة سنوات، عندما قام شخص بطعن شخص آخر بعد مطاردته بالسيّارة عبر المدينة. وتبيّنَ لاحقًا أنّ المجنيّ عليه لم يُعطِ أولويّة المرور للقاتل، فجُنّ جنونه وتبعه وأخرج سكّينه ووجّه إليه عدّة طعنات أردته قتيلًا في الحال.[٤] وبعد أن ظهر مقطع فيديو على الإنترنت يصوّر الحادثة، لم ينصبّ اهتمام وسائل الإعلام والنشطاء ومستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي على القاتل والمقتول، بل على الأشخاص الذين كانوا في موقع الجريمة، وقاموا بتصوير المجرم وهو يطعن المجني عليه من دون أن يتدخّل أحدٌ منهم لمنع القاتل. وقال الذين انتقدوا المتفرّجين على الحادث إنّ جريمة من كان يصوّر الحادثة من دون أن يتدخّل هي بحجم جريمة القتل ذاتها. فهو لم يتدخّل لإنقاذ المجني عليه، رغم أنّه كان يمتلك القدرة على ذلك.

٤ Read the story at: https://www.annahar.com/article/266402

ماذا لو تقدّم شخص من هؤلاء الذين كانوا يشاهدون الجريمة، وقال إنّه لم يُحاول إنقاذ المجنيّ عليه لأنّ المجرم شخص «ذو إرادة حُرّة»، وإنّ أيّ تدخّل لإيقاف الجريمة هو انتهاك لتلك الإرادة؟ من المؤكّد أنّ مثل هذا الجواب سيكون مثيرًا للسخرية. فكلّ القوانين الوضعيّة، بدءًا بإشارة المرور حتّى قوانين جرائم الحرب، قائمة على أساس انتهاك إرادة الإنسان الحرّة في كلّ لحظة لفرض النظام. ويعلم الجميع أنّه إن لم تُنتهك الإرادة الحرّة للأفراد فسوف تعُمّ العالمَ الفوضى.

## مُتفرّج آخر

هل يُعقل أنّ الله يُشاهد بصمت الأمراض وهي تفتك بالبشريّة كلّ يوم نتيجة لإضافة المواد المسرطنة إلى الغِذاء، من أجل مزيد من الربح للشركات العملاقة، ولا يفعل شيئًا حيال ذلك؟ كيف يمتنع عن التدخّل وهو يُشاهد آلاف الأغنام تُذبح يوميًّا في أوروبا وتُلقى في المزابل لكيلا تنخفض أسعار اللحوم، بينما آلاف الأطفال يتضوّرون جوعًا حتى الموت حول العالم؟ كيف يشاهد بصمت حوادث السير الناتجة عن السرعة والإهمال، والحروب الناشئة عن طمع تُجّار الأسلحة، والأطفال المولودين بتشوّهات مختلفة نتيجة إهمال الأمّهات خلال فترة الحمل،

والعلاقات المدمّرة، والسرقة، والظُلم، والطمع، والتكبّر، والخيانة، وتدمير البيئة، والتربية العشوائيّة والأُسَر المُفكّكة، وآلاف الأمثلة الأخرى التي تزيد بشاعتها عن بشاعة جريمة بيروت ملايين المرّات؟ هل يُعقل أن يقف الله صامتًا أمام كُلّ هذا الألم لأنّه لا يريد انتهاك الإرادة الحُرّة التي منحها للإنسان؟

ربّما ستكون تلك الإجابة مقبولة نوعًا ما لو كان الله لا ينتهك إرادة الإنسان الحُرّة فقط عندما يُقرّر الإنسان إيذاء نفسه. ولكن، كيف يُمكن أن يترك الله خليقته تتخبّط في هذه الفوضى العارمة من دون حِراك؟ أيّة إرادة حُرّة تلك التي تمنع الأب من الدفاع عن أبنائه؟ حتّى الأب البشريّ يتدخّل لقمع إرادة أبنائه عندما يَعلم أنّهم سيرمون بأنفسهم للتهلكة. فكيف لا يتدخّل الآب السماويّ على الأقل لقمع إرادتهم عندما يجلبون الألم على غيرهم؟ حتّى بحسب القوانين البشريّة الساقطة، إنّ من يصمت أمام الألم الذي يُحدثه إنسان لأخيه الإنسان مع امتلاكه القوّة لإيقافه مشتركٌ في الجريمة. فكيف نقبل أن يكون صمت الله مبرّرًا بموجب هذا العذر؟

## وهم الإرادة الحُرّة

نشرت صحيفة الإندبندنت البريطانية في فبراير من العام ٢٠١٦

تقريرًا عن مُعلّم مدرسة لم تذكر اسمه. كان الرجل يعيش مع زوجته وابنتَيها في إحدى المُدن في الولايات المُتّحدة الأمريكية. وبعد عامين من الزواج الهادئ السعيد، اكتشفت الزوجة محاولات الرجل التحرّش بابنتها الصغيرة جنسيًّا، ثمّ اكتشفت بالصدفة على جهاز الكمبيوتر الخاصّ به مجموعة من الأفلام الجنسيّة التي يتمّ فيها الاعتداء على أطفال، فجُنّ جنون الزوجة وقامت بطرد الرجل من البيت، ورفعت دعوى قضائيّة ضدّه، وتمّت إدانة الرجل، وحكم عليه القاضي بالخضوع لبرنامج علاجيّ يتكوّن من اثنتي عشرة مرحلة، وإلّا سيكون السجن مصيره. لكنّ الرجل لم يستطع السيطرة على رغباته المنحرفة رغم انضمامه إلى البرنامج العلاجيّ. وفي الليلة التي سبقت إرساله إلى السجن، هرع الرجل إلى إحدى المُستشفيات في ولاية فيرجينيا، حيث اعترف للطبيب بأنّه يُعاني من نوبات هلع وأفكارٍ انتحاريّة، وبأنّه يُخطّط لاغتصاب صاحبة المنزل الذي يعيش فيه. وبعد أن اطّلع الطبيب على سجل الرجل الطبّي، اكتشف أنّه في العام ١٩٨٤ تعرّض لإصابةٍ في الرأس سبّبت غيابه عن الوعي لدقيقتين. وبعد إجراء فحص السكانر، تبيّن وجود ورم في دماغ الرجل تسبّبت فيه تلك الإصابة القديمة. خضع الرجل لعمليّة، وبعد إزالة الورم الدماغيّ تغيّرت حياته بشكل جذريّ، حيث اختفت كلّ أعراض الاضطراب الجنسيّ

السابق تمامًا، وبعد سبعة أشهر، أتمّ الرجل البرنامج العلاجيّ الذي عيّنه له القاضي وسُمح له بالعودة لبيته ولزوجته.[٥]

خَلُص العلماء الذين اطّلعوا على هذه القضيّة واشتركوا في الاختبارات التي أُجريت على الرجل، إلى أنّ الورم الدماغيّ في الفصِّ الأمامي من المخّ كان السبب وراء انقياد الرجل وراء مشاهدة تلك الأفلام الجنسيّة، ووراء السلوك المضطرب الذي أظهره تجاه الأطفال. قال أحد الأطبّاء، واسمه جيمس كانتور، إنّ حالة هذا الرجل ليست الوحيدة، بل إنّ هنالك عدّة تقارير عن سلوكيّات جنسيّة مضطربة سبّبتها إصابات في الرأس.

يناقش سام هاريس، وهو أحد مؤسّسي حركة الإلحاد الجديد في الغرب، في كتابه الذي صدر تحت عنوان «الإرادة الحرّة» من ناحية علميّة كيف أنّ ما يُسمّى بالإرادة الحرّة إنّما هو محضُ وهم، حيثُ إنّ كُلّ قرار يتّخذه الإنسان إنّما هو عبارة عن ثمرة تنمو على شجرة لها أغصان وورق وساق وجذور.[٦]

وتقوم التربية، والتعليم، والبيئة، والظروف، والجينات،

٥ Read the Articles at: www.Independent.co.uk, Kashmira Gander, Retrieved on 10 February 2019

٦ Sam Harris, «The Illusion of Free Will». www.SamHarris.Org. Retrieved on 18 February 2019

والاختبارات، والمشاعر، وكيمياء الجسد، وكهرباء الدماغ، والأحداث اليوميّة وآلاف الأسباب الأخرى بتحديد اختيارات الشخص بالكامل، حتى قبل أن يُدرك بعقله الواعي ما الذي يريد اختياره، ابتداءً من نوع العصير الذي يُفضّله إلى أكبر القرارات المصيريّة مثل الزواج، والعمل، والدراسة. لقد أثبتت التجارب الكثيرة التي أجراها مختصّون على الدماغ الإنسانيّ، أنّ القرارات التي نظُن أنّها صادرةٌ عنّا بشكل واعٍ، ما هي إلّا نتائج حركة كهرباء الدماغ، حيثُ تمكّن هؤلاء المختصّون من تحديد القرار الذي سيقوم الشخص الخاضع للتجربة باتّخاذه قبل أن يُعرض عليه الخيار أصلًا من خلال مراقبة تلك الإشارات الكهربائيّة.[٧] وأكثر من ذلك، بعض القرارات التي اتّخذها أصحابها نتيجة تسليط تيار كهربائي على مناطق مُحدّدة من الدماغ، تمّ تفسيرها على أنّها قراراتهم الشخصيّة الواعية، ودافعوا عن ذلك أيضًا.[٨] ويُثبت هذا أنّه حتّى تلك القرارات التي نظُنّ أنّنا نأخذها عن سابق إصرارٍ وتصميم، ما هي إلّا نتائج عوامل أخرى سبّبت تلك القرارات، بل وخلقت فينا الشعور أيضًا بأنّها صادرةٌ بالكامل عن وعينا.

٧ Full study at: www.nature.com/articles/4591052c

٨ Full Study at: https://www.sciencedaily.com/releases/2016/01/160104130826.htm

نشرت الواشنطن بوست عام ٢٠١٥ نتائج الأبحاث التي أجرتها المؤسّسة الأميركيّة للدواء والغذاء عن الإدمان، حيثُ أظهرت تلك الدراسات أنّ الافتقار إلى العلاقات التي تُقدِّم للشخص الحبّ والقبول وتُشعره بالانتماء، هو السبب الرئيسيّ لتعاطي المخدّرات.[٩] إنّ تعاطي المخدّرات هو ثمرة أغصان الوحدة وأوراق الرفض وسيقان الحرمان وجذور البحث عن القيمة.

استضاف الإعلاميّ جورج قرداحي في برنامجه «المسامح كريم» رجلًا قَطع يدَيْه لأنّه لا يستطيع التوقُّف عن السرقة رغم أنّه قضى سنوات طويلة في المحاولة ليتفادى غضب الله عليه، حسب قوله. فكان قَطْعُ السارق ليدَيْه ثمرة أغصان الخوف من الله الذي نشأ نتيجة لجذور الدين والأيديولوجيا.

## لنفترض جدلًا

لقد شغل موضوع إرادة الإنسان النقاشات الفلسفيّة واللاهوتيّة منذ آلاف السنين، فتعدّدت الآراء والنظريّات حولها، وكُتبت آلاف المُجلّدات بين مُدافع ومُعارض. ولا توجد طريقة ممكنة لحسم الجدل نهائيًّا في هذا الأمر المُعقّد. وتهدف الأمثلة التي

٩ Full Study at: https://www.huffpost.com/entry/the-real-cause-ofaddicti_b_6506936

طُرحت هنا إلى توضيح الخلل في جهاز الإرادة عند الإنسان، وإلى تبيان استحالة وجود قرار حُرّ واحد غير مرتبط بسلسلةٍ طويلةٍ من الأحداث الماضية التي تؤثّر فيه. لذلك، فإنّ عدم تدخّل الله لإيقاف الألم بسبب احترامه لإرادةٍ مشكوك في صلاحها أمرٌ غير مبرّر. وحتّى لو سلّمنا جدلًا أنّ إرادة الإنسان سليمة ولا يشوبها شيء، ولكن أساء الإنسان استعمالها، فكيف يمكن أن يقف الله مكتوف اليدين وهو يرى الإنسان يجلب هذا الكمّ الهائل من الألم على نفسه وعلى الآخرين؟ أضِف إلى ذلك أنّ تبرير صمت الله أمام الألم بسبب الإرادة الحُرّة يخلِق معضلة. فإذا كان لله كامل السلطان على خليقته وهو يريد لأمرٍ أن يحدث (غياب الألم)، لكنّ الإنسان بإرادته قرّر العكس (وجود الألم)، فإنّه يترتّب على ذلك أنّ الذي يمتلك الكلمة النهائيّة هو الإنسان لا الله، ومن شأن هذا أن يجعَل من الإنسان سيّدًا مُطلقًا بلا منازع.

> القول بأنّ سيادة الله محدودة بحرّية الإنسان
> يعني أنّ الإنسان هو السيّد المُطلق

# سماح الله بالألم

في قضيّة عُرفت بأنّها أضخم عمليّة احتيال طبّي في تاريخ أميركا، قام «فريد فتّا» ذو الأصول اللبنانيّة وصاحب أكبر مركز لعلاج السرطان في ولاية ميشيغان الأميركيّة، والذي حُكم عليه بالسجن لمدّة ٤٥ عامًا، قام خلال فترة ستّ سنوات بتقديم علاج كيميائيّ لـ ٥٥٣ مريضًا كان أغلبهم غير مصابين بالسرطان أو أنّ حالتهم لم تتطلّب ذلك. جنى فتّا خلال تلك الفترة أكثر من ٣٥ مليون دولار أميركي من المرضى ومن شركات التأمين.[١٠]

من شأن التعرُّض للعلاج الكيميائيّ بشكلٍ عام، ولا سيّما من دون أن يكون الشخص مصابًا بالسرطان، أن يقضي على الجسد شيئًا فشيئًا. لقد شاهد أكثر من ٥٠٠ عائلة أفرادًا من أسرها وهم يموتون أمامهم بشكل بطيء. إنّي أتخيّل رجلًا من هؤلاء الضحايا وهو يظُنّ أنّه مصاب بالسرطان يجلس على حافة سريره في الظلام، ويكاد يختنق بدموعه رافعًا صلاته لله:

---

١٠ Read more at: www.en.wikipedia.org/wiki/Farid_Fata

«يا ربّ، إنّي عاجزٌ عن النظر إلى زوجتي وأطفالي. لا أحتمل تلك النظرة التي في عيونهم، ذلك الرُعب الذي يمزّقهم وتلك الحيرة التي تغمرهم. يا ربّ، لا أستطيع أن أتخيّل كيف سيعيش أطفالي من دوني، ويكبرون، ويكملون دراستهم، ويتزوّجون من دون أن أكون معهم لأرى ذلك. يا ربّ، أنا لا أحتمل كلّ هذا الألم. لا أعلم كيف ستكون حياتهم من دوني، ويقتلني التفكير في أنّ وقت فراقي لهم قريب.»

لماذا لم يُرشد الله المرضى لرقم هاتف طبيب آخر منذ البداية؟ كان بإمكانه أن يتدخّل بطريقةٍ ما لكي لا يحصل الطبيب على علامات تؤهّله لدخول كُليّة الطبّ من الأساس. كان بإمكانه كشف الطبيب بعد خداعه لأوّل مريض. كان بإمكانه تحويل مجرى الأحداث بآلاف الطُرق وإنقاذ مئات الأشخاص وعائلاتهم وأصدقائهم من ألم لا يُحتمل. لماذا صمت الله وترك مئات الأشخاص يتعرّضون لعلاج كيميائي مُدمّر لأجسادهم بلا داعٍ، وترك عائلاتهم وأصدقاءهم يترقّبون موتهم بألم وحزن لأشهرٍ طويلة، وربّما لسنوات؟

## الخُطّة البديلة

١٧ وَقَالَ الله لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ
الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ
بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ١٨ وَشَوْكًا
وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ١٩ بِعَرَقِ وَجْهِكَ
تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ
تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». (تكوين ٣:١٧-١٩)

يجوز لنا أن نطرح الأسئلة السابقة حول كلّ الآلام التي تصيبنا، ولكن حادثة السقوط هي أمُّ كُلّ الآلام. ولولاها لكنّا الآن نعيش في محضر الله بعيدًا عن الشرّ والألم، وما كُنّا لنُحرَم من السلام أو نُنفى جميعًا بعيدًا عن الوطن. فلو وصل الله إلى الجنّة قبل دقائق فقط من التقاط حوّاء للثمرة المُحرّمة، لتفادينا كلّ تاريخ الألم المُسجّل والمنسيّ. فلماذا ترك الله آدم يرتكب تلك الجريمة التي حكمت ليس فقط عليه، بل على كلّ نسله من وقتها وإلى انقضاء الدهر بالشقاء والتعب؟

تنتشر في الأوساط المسيحيّة فكرة مفادها أنّ الله بالفعل يحترم إرادة الإنسان الحُرّة، ولكن عندما يفعل ذلك لا يكون

صامتًا في وجه الشرّ، بل إنّه يسمح للإنسان بإحداث الألم لكي يستخدمه لاحقًا في تحقيق مشيئته للخير. أي أنّ الألم ليس قصد الله منذ البداية، ولكنّه يترك الإنسان لشروره ليعود ويُحوِّل ذلك الشرّ إلى خير.

إستنادًا إلى هذه الفكرة التي تبنّاها آلاف المعلّمين عبر التاريخ، ومنهم روجر أولسون في كتابه، «إنقاذ سمعة الله من اللاهوت المُصلَح الراديكاليّ»، فإنّ الله يسمح بحدوث الشرّ الذي لا يُريده (السقوط) لكي يستخدمه في الخير الذي يُريده (الخلاص). لكن على قدر ما تبدو هذه الفكرة مميّزة لتبرير صمت الله أمام ما يُسمّى بالإرادة الحُرّة، إلّا أنّها تخلِق مشكلاتٍ لا حصر لها:

أوّلًا، سيكون آدم مسبّبًا رئيسيًّا للسقوط، تاركًا لله دورًا ثانويًّا يقتصر على قيادة التاريخ لإعادته إلى مجراه الطبيعيّ.

ثانيًا، سيبدو أن هنالك تغيّرًا في الخُطّة الأصليّة التي أرادها الله، حيث كان من المفترض أن يعيش آدم في الجنّة معزّزًا مكرّمًا طالما أنّه يلتزم البقاء بعيدًا عن الشجرة المُحرّمة، ولكنّ المُخطّط تغيّر عندما أراد آدم أن يعصي الله فسَمَح له الله بذلك، لأنّه

سيستخدم النتائج لتحقيق خيرٍ أعظم.

ثالثًا، لن يكون الله صاحب القرار النهائيّ في الوجود، فلو غيّر آدم قراره وطاع الله، لكانت القصّة مُختلفةً تمامًا.

رابعًا، يُصبح تاريخ الإنسان طارئًا ومُحدَثًا، وهو مجرّد أضرار جانبيّة كان من الممكن تفاديها والإبقاء على المشروع الأصليّ الأجمل، بدلًا من أن يضلّ الجميع.

خامسًا، يُصبح مشروع الله لإنقاذ الإنسان عبارة عن خُطّة بديلة Plan B وردّ فعل لا أكثر. ووجود ذلك المشروع في علم الله السابق قبل إنشاء العالم أمر لا يُغيّر تلك الحقيقة.

سادسًا، يصبح ابتهاجنا وفرحنا بخلاص الله، بغضّ النظر عن نتائجه العظيمة التي تفوق جنّة آدم أمرًا مبالغًا فيه، لأنّنا ما كُنّا لنحتاج إليه لو طَرَدت حوّاء الحيّة بدلًا من الاستماع لها، ولكُنّا تفادينا كلّ هذا التاريخ المؤلم، واكتفينا بما منحه الله لآدم من امتيازات عظيمة.

لا أستطيع تخيّل ردّ الله على صلاة المريض في المثال الماضي بقوله: «لقد امتنعت عن التدخّل بمليون طريقة ممكنة لإيقاف هذه اللعبة، وسمحت للطبيب بأن يتلاعب بك وبخمسمئة

شخص آخرين لكي أستخدم ألمكم للخير.» ما هو هذا الخير الذي بسببه سمح الله للطبيب بارتكاب هذه الجرائم البشعة؟ ولو افترضنا أنّهُ بالفعل قد حوّل كلّ تلك الآلام إلى خيرٍ في حياة أصحابها بطريقةٍ ما، ألمْ يكن أمام الله خيار لكي يحقّق ذلك الخير، من دون السماح للطبيب بتعريض مئات الأشخاص لعلاجٍ كيميائي مؤلم، وجرّهم وعائلاتهم إلى ترقّب الموت في كلّ لحظة؟ إذا كانت الإجابة بالنفي، فتلك مصيبة، وإذا كانت الإجابة بنعم، فتلك مصيبة أعظم.

## إدارة الأزمات

إنّ سماح الله بما لا يُريده ليُحقّق ما يُريده، هو مغالطةٌ منطقيّة تهدم نفسها بنفسها، وتُفقد الألم معناه الأصيل. فلو كان هنالك أحد يستطيع ترجمة لغة الألم، لسَمِع صُراخ قلب المتألّم يقول: «أرجو يا ربّ أن يكون هنالك هدف لهذا الألم»، أين الهدف في ألمٍ قرّره مُسبّبٌ آخر غير الله؟ إنّ استخدام الله للألم لا يُضيف معنىً أصيلًا لهُ، بل يجعل الله مديرًا لقسم إدارة الأزمات لا أكثر. أستطيع شخصيًّا مع ملايين البشر مثلي أن نشهد بأنّ الآلام التي اختبرناها في الماضي كانت سبب بركة عظيمة لنا، ونحن

نشكر الله على الخير الذي تبعها. ولكنّنا نعلم أنّها لم تحدُث لذلك السبب بالتحديد.

## ولا حتّى مئة طفل يا صديقي

كُنت أقوم بزيارة صديق وزوجته في المستشفى بعد أن تعرّضت العائلة لحادث سير، فقدا على إثره ابنهما البالغ من العمر أربع سنوات. وبينما كنت معهم في الغرفة، أتى أحد معارفهم للاطمئنان عليهم ومواساتهم. وخلال الحديث، اقترب الرجل من الوالدة المنكوبة وقال لها: لا تحزني، فسيُعوّضكِ الله بدلًا منه. قريبًا ستحبَلين وتلدين، وسيُفرح الله قلبك من جديد. لا أعلم ماذا حدث، ولكنّي شعرت بأنّ وقع كلماته في قلبها كخناجر تمزّق أحشاءها. غرقت المرأة في دموعها، ثمّ التفتت إلى الرجل وقالت له: ولا حتّى مئة طفل يا صديقي.

إنّ الإيمان بوجود تعويض في المستقبل أعدّه الله للذين تألّموا أمر لا يُعطي معنى للألم الذي يُصيبنا أيضًا، بل يؤكّد أنّ الألم ما كان ينبغي له أن يحدُث. ولكن، بما أنّه حدث بأيّ حال، فإنّ الله سيُعوّض علينا يومًا ما. والقبول بهذه الفكرة التي هي أسوأ من فكرة سماح الله بالألم، سفسطة في حقّ الله وإساءة إليه. فكما

تُنصِّب فكرة الإرادة الحُرّة الإنسان على عرش السيادة باعتباره مسببًا أوّلًا للألم، تأتي هذه الأفكار الأخرى لتُنزل الله عن عرشه وتجعل أفعاله مجرّد ردود أفعال لا أكثر.

> إن كانت الآلام التي تُصيبنا بلا هدف،
> فسيقتُلنا الندم على آلام الماضي،
> وسيشُلُّنا الخوف من آلام المستقبل.

# تأثير الفراشة

خرج رامي من بيته. أراد اختيار مطعم لتناول الغداء، فتوجّه إلى مطعمه المفضّل عند زاوية الشارع. ولكن، قبل أن يدخلَ، غيّر رأيه لأنّه شعر وهو يرتدي ثيابه في الصباح بأنّ البنطال ضيّق نوعًا ما، فقرّر أن يحاول خسارة بعض الوزن ابتداءً من ذلك اليوم. لذلك، توجّه إلى مطعم آخر يقدّم طعامًا صحّيًّا غير لذيذ على الإطلاق. دخل رامي المطعمَ وطلب الطعام. وبينما كان ينتظر، جذبت انتباهه ساعة يد كان يرتديها شخص يجلس بالقرب منه. اقترب رامي من الرجل وسأله عن المكان الذي اشترى منه الساعة. وبعد الغداء، توجّه إلى العنوان الذي أعطاهُ إيّاه الرجل. وبينما كان في متجر الساعات تعرّف بفتاةٍ كانت تبحث عن ساعة يد لتشتريها أيضًا.

بعد فترة، تطوّرت بينهما علاقة صداقة ثم حُبّ وزواج. وبعد عامين، حصلت الزوجة على عرضٍ للعمل خارج البلاد براتبٍ مغرٍ جدًّا، فقرّر رامي أن يترك عمله لكي يسافر مع زوجته، وأن يبحث عن عمل جديد في البلد الذي ستعمل فيه. استقرّ رامي وزوجته في البلد الجديد وأنجبا طفلًا أسمياه «شادي».

وبعد خمسين عامًا، حصلت أزمة اقتصاديّة خانقة في موطن رامي الأصليّ أدّت إلى إقفال مئات الشركات وتشريد آلاف العائلات. لكنّ رئيس دولة أجنبيّة غنيّة قدّم منحة كبيرة للبلاد، أنقذت الوضع وأعادت فتح الشركات وتوظيف آلاف العمّال من جديد. في الحقيقة، لو لم يكُن بنطال رامي ضيقًا ذلك الصباح قبل خمسين عام، لبقي مصير بلاده ومصير أهلها مجهولًا في هذه الأزمة الاقتصاديّة، لماذا؟ لأنّ الرئيس شادي قدّم المنحة الماليّة ليُنقذ اقتصاد موطن والده (رامي) الأصليّ.

إنّها تفاصيل صغيرة جدًّا... حُلم يوسف أنقذ العالم بعد عشرات السنين... «زُرقةٌ في عينيّ طفلٍ جعلت منه بعد زمنٍ غلّابًا للمغول وصاحبًا للسلطان.»[١١] يقول الفيلسوف الألماني يوهان غوتليب فيتشه: "لا يُمكنك إزالة حبّة رمل واحدة من مكانها من دون تغيير شيء ما عبْر أجزاء الكون اللامحدود". هذا هو ما يُعرف أيضًا بتأثير الفراشة.[١٢] فحتّى التفاصيل الصغيرة التي تبدو بلا معنى وبلا تأثير على الإطلاق، تكون سببًا رئيسيًّا في خطّ الأحداث الذي يؤدّي إلى تغييرات كبيرة. الأمر شبيه

١١ اقتباس مأخوذ من قصيدة نثريّة للشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي بعنوان «في القدس» قصد بها جنكيز خان.

١٢ Read more at: www.en.wikipedia.org/wiki/Butterfly_effect

بقطع الدومينو، فسقوط أصغر قطعة دومينو في العالم على القطعة التي تليها سيكون في النهاية سببًا في سقوط قطعة دومينو بحجم برج خليفة.

لا تدع حقيقة ارتباط كلّ تفاصيل الأحداث ببعضها مجالًا للقول بأنّ دور الله في حدوث الألم مقتصر على السماح به لاستخدامه في الخير بعد ذلك. فإمّا أن يكون الله متداخلًا في كلّ التفاصيل، أو أنّه خارج الصورة بشكل كلّي. فمُجرّد أن يكون لله علاقة بحدث صغير وهامشيّ جدًّا، يعني أنّه أثّر بشكل مباشر في كلّ الأحداث التي تتبعها وحرَّف مسارها. بالتالي ستترتّب على التدخّل ذاته أحداث غير محدودة عبر الزمن، ستكون سببًا لآلام كثيرة في أماكن وأزمان مختلفة.

## النتيجة الحتميّة

كُنتُ وأحد الأصدقاء نستمع إلى واعظ شهير يُعلِّم أنّ الله لا يأمُر بالآلام التي تُصيبنا، إنّما يسمح بحدوثها نتيجة عوامل كثيرة مثل الإرادة الحُرّة، أو دور الشيطان وسماح الإنسان له بالتدخّل في حياته. قلتُ لصديقي حينها إنّه لن تمُرّ فترة طويلة قبل أن يبدأ هذا الواعظ بتعليم الناس أنّ الله لم يسمَح بالألم أصلًا. وبالفعل، بعد عدّة أشهر، وفي منشور عبر حسابه على إحدى وسائل التواصل الاجتماعيّ، كتب الرجل هذه الكلمات عينها: «لا تذهب لتبكي عند الربّ حينما يُصيبك الألم وتقول له: «لماذا؟ لماذا؟» فأنت مسؤول عن الألم، وليست مشيئة الله أن يسمح به أصلًا. بل ليست لهُ علاقة به. عليك أن تكون شاكرًا أنّه سيتدخّل برحمته لإنقاذ الوضع أصلًا.»

إنّ النتيجة الحتميّة التي سيصل إليها كُلّ من يقول إنّ الله يسمح بالألم ولكنّه ليس المسبّب الأوّل له، هي إنكار معرفة الله بالمستقبل، ويُدعى هذا بالـ Open Theism[١٣]، حيث يُصبح الله مجرّد مشترك مع الإنسان في صناعة المُستقبل الذي يجهله. ويعود السبب في ذلك إلى إدراك الإنسان أنّه لا توجد

١٣ *Read more at: www.gotquestions.org/open-theism.html*

منطقةٌ وسطى بين الجنّة والنار، وأنّ الله إمّا أن يكون المسبّب الأوّل والرئيسيّ والحصريّ لكلّ شيء، وإمّا أنّه خارج اللعبة تمامًا Deism. سينتج دائمًا عن حالة التخبّط التي نعيشُها في محاولة فهم علاقة الله بالألم نظريّات تجعل من الإنسان مركزًا لكلّ الأحداث، وستُقصي الله عن المشهد أو تجعل منه لاعبًا ثانويًّا إلى جانب الإنسان صاحب القرار النهائيّ.

> إنّي على يقين أنّ ذرّة الغبار التي ترقص في نور الشمس المتسرّب إلى الغرفة لا تتحرّك للأمام أو للخلف، إلّا حسب رغبة الله

# ليكن اللهُ الله

كانت نتائج سُقوط آدم من الجنّة كارثيّة بما لا يُقاس، حيث فسُدت طبيعة الإنسان، وتلوّثت الخليقة من حوله، وأصبحت عُرضةً للزلازل والأعاصير والبراكين. وفي الظاهر، يبدو أنّ الإنسان مركز الخليقة وغايتها، وأنّه مُوضوع السُقوط ومُسبّبه الأوّل. لكن في الحقيقة، «إنّ الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ. الذي فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ» هو غايةُ كُلّ الأزمنة، وقِبلة كُلّ التاريخ، ومحطّة المستقبل الختاميّة، هو الألف والياء. ولولاه لما وُجد الزمان ولما وُلد الصُبيان. هو ربّ الأرباب وملك الملوك، الكلمة الخالق المبدئ المُنهي، الذي عرَفَنا فأوجَدنا ليُخلّصنا لنعرِفَهُ. لم يكُن مُخَطّطًا بديلًا اضطرّ الله إلى استحداثه، أو مشروعًا ثانويًّا كان في عقل الله منذ البداية، بل هو بداية المُخطّطات ونهاية المشاريع. إنّه حجر الأساس ورأس الزاوية، وهو ليس عُنصُرًا في رواية الإنسان، بل الإنسان والمكان والزمان هوامش في روايته. وإن كان للإنسان من قيمة فهي منه، وإن كان لحياته من معنى فهو

لأجله، وإن كان حيًّا يتنفّس فذلك لمجده، شاء أم أبى، أراد أم اعترض، أطاع أم عصى.

لقد كان سُقوط الإنسان مشمولًا في مُخطّطات الله الأزليّة، ولم يكُن فقط في معرفته المُسبقة، لأنّ استعلان الله الابن ومجيئه إلى العالم لم يأتِ بقرارٍ من آدم، بل إنّ الله قد خلق كلّ شيء من أجل ذلك. ولكنّ قرار آدم، الذي تحمّل مسؤوليّته، مثله مثل أي قرارٍ آخر تحت السماء، كان يسير في اتّجاه تحقيق مشيئة الله.

غالبًا ما تنبع الصعوبة في تقبّل هذه الحقيقة من عدم القُدرة على التوفيق بين ما يُمثّله السقوط من شرّ، وبين صفات الله التي تُناقض ذلك. «ولكن، حينما اجْتَمَعَ عَلَى فَتَاكَ الْقُدُّوسِ يَسُوعَ، الَّذِي مَسَحْتَهُ، هِيرُودُسُ وَبِيلاَطُسُ الْبُنْطِيُّ مَعَ أُمَمٍ وَشُعُوبِ إِسْرَائِيلَ، وفعلوا ذلك الشرَّ العظيم بقتلهم للمسيح البار بلا سبب، وهو ما تحمّلوا مسؤوليته وكان دمه عليهم وعلى أولادهم، فهم كانوا مجرّد منفّذين لـ كُلَّ مَا سَبَقَتْ فَعَيَّنَتْ يَدُكَ وَمَشُورَتُكَ أَنْ يَكُونَ.» (أعمال ٤:٢٧) بناءً على ذلك، فإنّ ما نعتبره شرًّا، كان مخطّط الله ومشيئته السابقة. بل هو رأي الله ومسرّته «لأنّه سُرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحَزَنِ. إِنْ جَعَلَ نَفْسَهُ ذَبِيحَةَ إِثْمٍ يَرَى نَسْلًا تَطُولُ أَيَّامُهُ، وَمَسَرَّةُ الرَّبِّ بِيَدِهِ تَنْجَحُ.» (اشعياء ٥٣:١٠)

تفرض كلمة الله علينا أن ننظر إلى الصليب على أنّه شرٌّ، وفي الوقت عينه، هو ما أراده الله وعيّنهُ ليحدُث بكلّ سُرور. ويفسّر هذا المقياس كيف يُمكن أن تكون حادثة السقوط شرًّا، وهي في الوقت عينه مشيئة الله ومُخطّطه المُسبق أيضًا. وليس السقوط فقط، بل كُلّ الآلام في العالم، «لأَنِّه هو اللهُ وَلَيْسَ آخَرُ. الإِلهُ وَلَيْسَ مِثْلِي، مُخْبِرٌ مُنْذُ الْبَدْءِ بِالأَخِيرِ، وَمُنْذُ الْقَدِيمِ بِمَا لَمْ يُفْعَلْ، قَائِلًا: رَأْيِي يَقُومُ وَأَفْعَلُ كُلَّ مَسَرَّتِي.» (اشعياء ٤٦: ١٠) فهو لا يعلَم فقط ذلك المستقبل الذي يصنعُه الإنسان، وهو ليس مجرّد مشترك في بنائه، بل إنّ الماضي والحاضر والمستقبل هو رأيه ومسرّته. فهو الذي يُميت ويحيي ويصنع الأعمى ويُبكم الفم (خروج ٤: ١١)، وكلّ من يتألّم، فهو يتألّم حسب مشيئته (١ بطرس ٤: ١٩). هو الذي يغيّر الأزمنة والمواقيت حسب مسرّة مشيئته، ويعزل ملوكًا وينصّب ملوكًا (دانيال ٢: ٢١)، ولا يُمكن أن يحدث شيء في العالم إن لم يكن بإرادته بالكامل (مزمور ٣٣: ١١). هو الذي يَبعث الأعاصير ويُشعل البراكين ويتحكّم في كلّ شيء في الطبيعة (عاموس ٣: ٦)، وهو الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ (أفسس ١: ١١) من أصغر الأحداث (متّى ١٠: ٢٩) إلى أكبرها على الإطلاق (أعمال ٤: ٢٧). إن كنت تتألّم الآن، فاعلم أنّ الله هو سبب آلامك

(مزمور ٤٤:١١). إن ضرب إعصار ساحليّ أيّة مدينة اليوم، فذلك حدث لأنّ الله لم ينفخ في وجه ذلك الإعصار، لأنّه يريدُه أن يحدث (عاموس ٣:٦)، وإن ارتكب إنسانٌ خطيئة، فذلك لأنّ الله قرّر ألّا يوقفه (تكوين ٢٠:٦)، وإن كان طفلُك على فراش المرض، فاعلم أنّ الله يشاء هذا (٢ صموئيل ١٢:١٥). هو يفعل ما يريد لأنّه سيّد الخليقة، رأيُه وحده يقوم ومشيئته وحدها تثبُت.

لا يُسرُّ الله بالشرّ ولا يُساكنه الشرّير (مزمور ٥:٤). ولكنّ الله لا يخضع لذات التصنيفات التي نخضع لها. وكما فَرِحَ الرَّبُّ لَكُمْ لِيُحْسِنَ إِلَيْكُمْ وَيُكَثِّرَكُمْ، كَذلِكَ يَفْرَحُ الرَّبُّ لَكُمْ لِيُفْنِيَكُمْ وَيُهْلِكَكُمْ (تثنية ٢٨:٦٣)، فهو إن أغرق الأرض بمن عليها (تكوين ٦:١٣)، أو أحرق سدوم وعمورة بالنار (تكوين ١٩)، أو قتَل سُكّان أريحا بأطفالهم وشيوخهم وأغنامهم (يشوع ٦:٢١)، أو عاقب شخصًا لخطيئة شخصٍ آخر (تكوين ١٢:١٧)، أو كافأ شخصًا لأنّه كذب (خروج ١:٢٠، يشوع ٦:١٧-٢٥)، أو أراد لابنه الوحيد أن يُصلب (أعمال ٤:٢٧)، فهو الله. وبإمكانه أن يفعل شيئًا إذا فعلناه نحن تُعَدّ أشرارًا، وإذا فعله هو يبقى صالحًا. إنّ محاولة جعل الله شبيهًا بالإنسان من

خلال تبرير كلّ أفعاله التي نعدّها «شرًّا»، إنّما هي تجريدٌ لله من صفاته، وبالتالي عزو النقص لألوهيّته.

## الشيطان والألم

لا يذكُر الكتاب المُقدّس الشيطان كثيرًا. ففي كُلّ العهد القديم لم يُذكر الشيطان إلّا في مناسبتَين. ورُغم ذلك، يتمّ نسب الكثير من الآلام والصعاب التي تواجهنا في الحياة إلى الشيطان، وكأنّه صاحب الكلمة الفَصل بهذا الخُصوص.

وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا فِي وَسْطِهِمْ.[٧] فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «مِنَ أَيْنَ جِئْتَ؟». فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «مِنْ الْجَوَلاَنِ فِي الأَرْضِ، وَمِنَ التَّمَشِّي فِيهَا».[٨] فقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ».[٩] فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «هَلْ مَجَّانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللهَ؟[١٠] أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي الأَرْضِ.[١١] وَلكِنِ ابْسِطْ يَدَكَ الآنَ وَمَسَّ كُلَّ

مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ».[١٢] فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هُوَذَا كُلُّ مَا لَهُ فِي يَدِكَ» (أيوب ١:٦-١٢أ).

وبمجرّد أن خرج الشيطان من أمام وجه الربّ، ضرب ممتلكات أيّوب، فقتل أبقاره وجماله وأغنامه، وقتل رعيانه. وقبل أن يضرب جسده بالقُروح من باطن قدمه إلى أعلى هامته، قتل أبناءَه وبناته، فسقط أيّوب على وجهه وقال: «عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلى هُنَاكَ. الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا.» (أيوب ١:٢١) وحين رأت زوجته ذلك قالت له: «لماذا تتمسّك بعد بكمالك؟ العن الله ومُت.» (أيّوب ٢:٩) فماذا كان جواب أيوب لها؟ هل قال لها: ما علاقة الربّ بهذا؟ فالشيطان هو من قرّر أن يجلب علينا هذا الشرّ؟ بالتأكيد لا، فَقَالَ لَهَا: «تَتَكَلَّمِينَ كَلاَمًا كَإِحْدَى الْجَاهِلاَتِ! أَالْخَيْرَ نَقْبَلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَالشَّرَّ لاَ نَقْبَلُ؟» فِي كُلِّ هذَا لَمْ يُخْطِئْ أَيُّوبُ بِشَفَتَيْهِ» (أيوب ١:٩-١٠).

يُشبّه جون بايبر المشهد بين الله والشيطان هنا، بلصٍّ دخل محلّ مجوهرات وكان صاحب المحل يجلس خلف الكُرسيّ، فقال صاحب المحل للصّ: «ماذا تُريد؟» فأجابه اللصّ: «إني أبحث عن شيء أسرقه.» فقال له صاحب المحلّ: «هل ترى ذلك

الصندوق الموضوع في الزاوية؟ يوجد داخله أغلى جوهرة عندي، خذ مفتاح الصندوق واسرقها.»[١٤]

لم يخطئ أيوب بشفتيه بالفعل حين قال إنّ الشرّ الذي أصابه من عند الله (١:١٠)، ولا أخطأ رُعاته حين قالوا إنّها كانت نار الله التي نزلت من السماء (١:١٦). لم يتلاعب الشيطان بالله لكي يسمح له أن يُدمّر أيوب، بل إنّ الله هو من استفزّ الشيطان ووجّه انتباهه إلى أيوب قائلًا: «هل وضعت قلبك على عبدي أيوب؟» بالفعل، لقد أراد الله كُلّ ما حدث لأيوب منذ البداية، وما الشيطان إلّا جُنديًّا خاضعًا لمشيئة الله.

وَقَالَ الرَّبُّ: [٣١]«سِمْعَانُ، سِمْعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَالْحِنْطَةِ! [٣٢] وَلكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ. وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ ثَبِّتْ إِخْوَتَكَ.» (لوقا ٢٢:٣١) نعم، على الشيطان أن يُقدّم طلبًا خطيًّا قبل أن يفعل أيّ شيء، وعليه أن ينتظر موافقة السيّد المُتسلّط المُتحكّم بمصائر البشر. حتّى الأنبياء الذين ينطقون بلسان الشيطان، فالله هو الذي يضع أرواح الكذب في أفواههم؟ (٢ أخبار ١٨: ٢٢). ولم يقُل

١٤ Full Sermon at: www.desiringgod.org/messages/job-whenthe-righteous-suffer-part-1

المسيح لبطرس «إنْ رجعت»، بل «متى رجِعت يا بُطرس ثبِّت إخوتك»، لأنّ الله هو الذي يمنح الإيمان ولا يستطيع أن يفنيه أحد، ولا حتّى نحن أنفسنا إن شئنا (أفسس ٢:٨).

## القدريّة وسيادة الله

تَخْلُص الأبحاث دائمًا في الأوساط العلميّة حول مفهوم الإرادة الحرّة، إلى نتيجة مفادها أنّ القرارات التي يأخذها الإنسان ترتبط دائمًا بتأثيرات سيكولوجيّة وبيولوجيّة. وقد أوردتُ أمثلة لذلك في البداية. ثم رأينا كيف أنّ الله في سيادته المُطلقة مسيطرٌ على كلّ الأحداث بلا استثناء. فإن كان الأمرُ بالفعل كذلك، أفلا تكون هذه هي القدريّة بعينها؟ فماذا سيختلف إذًا كيف نعيش، وما هي القرارات التي نأخُذها؟ فكلّ شيء سيسير حسب تلك الخُطّة التي رسمها الله، ولن نستطيع أن نُغيّر من ذلك شيئًا مهما فعلنا.

١٨ وَفِيمَا هُوَ يُصَلِّي عَلَى انْفِرَادٍ كَانَ التَّلاَمِيذُ مَعَهُ. فَسَأَلَهُمْ
قِائِلًا: «مَنْ تَقُولُ الْجُمُوعُ أَنِّي أَنَا؟» ١٩ فَأَجَابُوا وَقَالوا:
«يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: إِنَّ نَبِيًّا
مِنَ الْقُدَمَاءِ قَامَ». ٢٠ فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ أَنِّي

أَنَا؟» فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ: «مَسِيحُ اللهِ!». [٢١] فَانْتَهَرَهُمْ وَأَوْصَى أَنْ لاَ يَقُولُوا ذلِكَ لأَحَدٍ، [٢٢] قَائِلًا: «إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَتَأَلَّمُ كَثِيرًا، وَيُرْفَضُ مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلُ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ.» (لوقا ٩:١٨-٢٢)

لقد جاء المسيح إلى العالم لكي يموت فداءً عن البشر (لوقا ١٩:١٠)، وهو لم يكن يعرف ذلك فحسب، بل كان على علمٍ بكلّ التفاصيل، وكيف سيتمّ تسليمه، ومن هو الذي سيُسلّمه. حتّى قُبلة الخيانة التي طبعها يهوذا على خدّه، كان قد شعر بها قبل أن يُقبّله. في كُلّ مرّة كان يوجّه عينَيه نحو أورشليم، كان يرى رؤساء اليهود وهم يستجوبونه. كان يرى جلّاديه وصليبه الذي سيحمله وموته، وكم ثانيةً ستمُرّ قبل أن يقوم من بين الأموات، وماذا سيفعل بعد قيامته، وأين كان يجب على التلاميذ أن ينتظروه. ولكن رغم كُلّ ذلك، فإن الربّ في الليلة التي أُسلِم فيها، جاء مع تلاميذه إلى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا هُهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ». [٣٧] ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ. [٣٨] فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى

الْمَوْتِ. اُمْكُثُوا هٰهُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي». [٣٩] ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا:«يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هٰذِهِ الْكَأْسُ، وَلٰكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ.» (متّى ٢٦:٣٦-٣٩)

إن كان أحد يُدرِك أنّ أفعاله لن تُغيّر شيئًا على الإطلاق، فإنّ ذلك الشخص هو المسيح، لأنّه قد جاء ليموت. بل قد خُلِق العالم من أجل تلك اللحظة. وعلى الرغم من أنّه كان قادرًا أن يأتي بجيش من الملائكة ويوقف كلّ شيء (متّى ٢٦:٥٣)، إلّا أنّه مارَس إنسانيّته بشكل كامل، فحَزِن وصلّى طالبًا من الله أن يُبعد عنه تلك الكأس.

على الرغم من أنّ صلاة المسيح لم تُحدِث التغيير المنشود، إلّا أنّها أثّرت، شأنها شأن أيّ فعل آخر، في مسار التاريخ بشكل لا نستطيع تصوّره، حتّى إنّ هذه السُطور بالذات تُخطّ بسبب تلك الصلاة. والاستنتاج الطبيعيّ لهذا، هو أنّ أفعال البشر مُجتمعةً تسير في خطٍّ ثابت باتجاه تحقيق مشيئة الله. ففي حين أنّ القدريّة تُصوّر التاريخ وكأنه قالبٌ واحد متماسك جامد قد قدّره الله وخَتم عليه، بغضّ النظر عن أفعال البشر، تأخذُ سيادة الله المُطلقة أفعال البشر وتصنع التاريخ من خلالها. نحن لا

نستطيع أن نُقرّر كيف سيكون المُستقبل، لأنّ كلّ شيء عبارة عن تراكم عددٍ لا يُحصى من الأحداث الصغيرة التي تبدو بلا معنى. يُفترض أن تُحبطنا هذه الحقيقة، ولكن في الوقت عينه، إنّ الله هو الذي يُقرّر المُستقبل لأنّه هو المُهندس اللامحدود، وحامل كلّ الأشياء بكلمة قدرته، الذي يستطيع بعبقريّة تفوق تصوّرنا تسيير مليارات التفاصيل الهامشيّة الصادرة عنّا لتحقيق مشيئته النهائيّة. ويُفترض أن تمنحنا هذه الحقيقة الطُمأنينة بأنّ مصيرنا هو بين يديّ الله وليس مرهونًا بأحداثٍ عشوائيّة.

يقول الكتاب المُقدّس «١٢ تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، ١٣ لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّة.» (فيلبي ٢:١٢-١٣). وهذا ما يُميّز المسيحيّة عن باقي ديانات العالم وفلسفاتها. فالخلاص الذي قدّمه الله أبديّ لا يتزعزع كما سنرى في الفصل التالي، لكنّه ناتجٌ عن عمل الله في إرادة الإنسان وليس بمعزلٍ عنها. فالمسيحيّة إذًا تُقدّم سيادة الله المُطلقة، لكنّها أيضًا تؤكّد مسؤوليّة الإنسان. فالمسيح الذي جال بين الناس يقول «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يوحنّا ٦:٤٤) هو ذاته من قال: «قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ

اللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ.» (مرقس ١:١٥) وكذلك الأمر في موضوع الصلاة، فإنّ صلاة الإنسان التي تُحدث فرقًا، كما نتعلّم من كلمة الله، هي جزء من الخُطّة التي يُحقّق من خلالها الله مشيئته الصالحة. ولا يعتمد تقرير المُستقبل بالمناصفة على الله والإنسان، بل الله سيّد على كلّ الأحداث بنسبة مئة بالمئة، وفي الوقت عينه، يظلّ الإنسان مسؤولًا عن أفعاله مئة بالمئة.

> سيادة الله المُطلقة هي الصخرة التي لا تُكسر والتي يجب أن يستند إليها القلب المتألّم. فما يُصيبنا من شرّ ليس مجرّد حوادث، إنّما هو جزء من خطّة ثابتة أعدّتها يدا الربّ العظيم.

# الفصل الثاني

## الثالوث الثاني

لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَنَا للهِ بِدَمِكَ

# العنصر الناقص

قدّمتْ بعض التفسيرات اليهوديّة التي تبِعت الهولوكوست، والتي بحثت في موضوع الألم، ما يُسمّى بـ «ضدّ–الثيودوسيّة». حيث رأت أنّه لا يُمكن إيجاد مبرّر لكلّ الشرور التي تعرّض لها الشعب اليهوديّ عبر الزمن، وأنّ الأدلّة على وجود إصبع لله في كلّ ما أصابهم عبر التاريخ واضحة كالشمس.[١٥] لن يستطيع أيّ إنسان صادق مع نفسه ومُطّلع على إعلان الله عن ذاته في الكتاب المقدّس، أن يُنكر هذه الحقيقة، وسيرى في النهاية سيادة الله المُطلقة تنتشر عبر كُلّ صفحات الكتاب المقدّس. فلا توجد إرادة حُرّة تمنعه، ولا تصنيف لأيّ فعلٍ على أنّه شرّ يردعه، ولا شيطان يتصرّف من دون أمره.

يتصوّر اليهود الذين وصلوا إلى هذا الاستنتاج، حالُهم حال أتباع الديانات المختلفة التي تعبُد إلهًا مُطلق القوّة، إلهًا بعيدًا دمويًّا قاسيًا يطلب منهم الانقياد لأوامره وتقديم العبادة له، حاملًا سوط الترهيب تارةً، وكأس الترغيب طورًا. والنتيجة هي أنّهم إمّا أن يُقدِّموا الله للمُحاكمة، كما فعل مؤسّسو (ضدّ

١٥ Adam Gregermen, “Crossing Boundaries in Early Judaism and Christianity”, p. 344

الثيودوسيّة)، وإمّا أن يعيشوا حياتهم بالخوف والرُعب، محاولين الإفلات من ضربات الإله بتأدية الفرائض والعبادات له كحال مئات الملايين من أتباع الأديان المُختلفة. ستخلق عقيدة سيادة الله المُطلقة، إن قُدّمت وحدها، مجتمعات متمركزة حول ذاتها يملؤها الخوف والأنانيّة، حيث تُصبح المسافة بين الله والإنسان كبيرة، وعلاقة الإنسان بالله قائمة على المصالح الشخصيّة. وسينعكس هذا على علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فتصبح كلّ التعاملات الإنسانيّة محكومة بالمكاسب التي يُمكن تحقيقها، أو بالأوجاع التي يُمكن تفاديها.

> ٣١ إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟ ٣٢ اَلذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟...٣٨فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، ٣٩ وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةً أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا. (رومية ٨: ٣١-٣٩).

إنّ إله الكتاب المُقدّس كامل الصفات. فهو سيّدٌ مطلقٌ

على الخليقة، ولكنّ عقيدة سيادة الله لوحدها ستسحق الإنسان وتتركه صريع الألم تائهًا بلا أمل، يبحث عن المعنى الضائع لحياته في الأشخاص والمراكز والمُمتلكات. لكنّ العنصر الذي لا يُفارق تلك السيادة، بل يرتبط بها ارتباط الروح بالجسد، هو صلاح الله ومحبّته لنا. فالمسيح كان قمّة إعلانات الله عن ذاته. وكما ظهرت فيه سيادة الله عندما أحيا الموتى وفتح أعين العُمي وشفى المرضى والمساكين، فقد أعلن فيه الله أيضًا عن محبّته اللامتناهية وعن صلاحه المُطلق عندما مات على خشبة الصليب، وهو الموت الذي نستحقّه نحن.

لكنّ الأسئلة الطاغية عند الذين هم خارج الدائرة المسيحيّة، بل وبعض الذين في داخلها، هي كيف يُظهر الصليب محبّة الله لنا؟ فنحن لم نطلُب أن يموت المسيح مكاننا في الأصل. ولماذا الإحتياج إلى الصليب أصلًا؟ ألم يكُن الله قادرًا أن يغفر للإنسان من دونه؟ وكيف يُمكن أن نقبل محبّة الله لنا ونحن نعيش في هذا العالم المُضطرب الممتلئ بالمعاناة؟

# الثالوث الثاني

ماذا لو أخبرك شخص أنّ فريق أسانتي كوتوكو الغاني قد ربح بطولة الدوري هذا العام؟ على الأغلب، إنّ هذا الأمر لن يعنيك على الإطلاق. ولكي ينال هذا الموضوع شيئًا من اهتمامك، هنالك عدّة عناصر ضروريّة يجب أن تتحقّق: أوّلًا، أن تكون مهتمًّا بكرة القدم أساسًا؛ ثانيًا، أن يكون لديك دافع لتهتمّ بكرة القدم في غانا تحديدًا؛ ثالثًا، أن تتعرّف على الأندية التي تلعب في بطولة الدوري الغاني، وأن تُشجّع فريقًا منها. بعد ذلك ستكون مُهتمًّا بإبداء ردّ فعل تجاه هذا الخبر، إمّا بالفرح بالفوز، أو بالحزن على الخسارة. وعلى المقياس نفسه، فإنّ صليب المسيح، كعلامة على محبّة الله للإنسان، لا يعني شيئًا لأحد إنْ لم تتحقّق عدّة عناصر أساسيّة تُعطي الصليب معنى وقيمة. وهذا ما قاله الرسول بولس عن نظرة الأمم إلى الصليب (١ كورنثوس ١:١٨). فهم يجهلون معناه وقيمته وضرورته ودواعيه. ولكي يكتشف الإنسان حقيقة محبّة الله اللامتناهية له من خلال الصليب، فإنّ هنالك ثالوثًا ثانيًا يجب عليه إدراكه واستيعابه، وإلّا سيبقى الصليب بالنسبة له مُجرّد علامة مُبهمة،

أو مجرّد حادث أليم قد يتعاطفون معه ليس أكثر.

## الأقنوم الأوّل: قداسة الله

١٣قَالَ مُوسَى للهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟» ١٤ فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ.» (خروج ٣:١٣-١٤)

عندما ظهر الله في العُلّيقة المشتعلة، سأله موسى عن اسمه. أجابه الله بأنّه هو الذي هو. وتُشير هذه الإجابة إلى طبيعة الله وكيانه المُتمايز عن البشر، فهو غيرُ خاضع للأحكام التي نخضع لها، وهو مستقلّ بذاته، ولا يعتمد على أحدٍ في وجوده، وكُلّ شيءٍ يعتمد عليه. ومن دونه لن توجد حياة أو حركة. وهو لا يأخذ من أحد ولا يُعطي إلّا من ذاته. يُدعى هذا الاختلاف والتمايُز قداسة الله. وإن كان لله صفة يظهُرها الكتاب المقدّس أكثر من أيّ صفةٍ أخرى، فهذه الصفة هي قداسة الله. أدرك موسى معنى قداسة الله لاحقًا فسبّح قائلًا: «مَنْ مِثْلُكَ بَيْنَ الآلِهَةِ يَا رَبُّ؟ مَنْ مِثْلُكَ مُعْتَزًّا فِي الْقَدَاسَةِ، مَخُوفًا بِالتَّسَابِيحِ،

صَانِعًا عَجَائِبَ؟» (خروج ١٥ :١١).

ارتبطت كلمة قداسة في الأوساط الشعبيّة بالطهارة والبرّ والأعمال الصالحة، واستعملها الكتاب المُقدّس بهذا المعنى في مواقع عدّة (٢ كورنثوس ١:٧، ١ بطرس ١:١٤). لكنّ قداسة الله في قرينة الحديث عن صفاته، تعني اختلافه عن الخليقة وسُموّه وتمايزُه. وهذا الاختلاف هو القاعدة التي انطلقنا منها عند الحديث عن أعمال الله في العهد القديم، وكيف أنّه لا يخضع للمقاييس نفسها التي تخضع لها الخليقة. ولأنّ الله قدّوس، فإنّ صفاته كُلّها مُقدّسة أيضًا. فعدله يختلف عن عدالة البشر، ورحمته تختلف عن رحمة البشر. وتعمل هذه الصفات مجتمعة بعضها مع بعض في الوقت ذاته على عكس صفاتنا. فلا عُطل يُصيب إحدى صفاته، ولا تطغى صفة فيه على الأخرى، فهو متّسقٌ مع ذاته. وإن قضى أمرًا بعدالته وجب تنفيذه بِغضّ النظر عن رحمته.

والإنسان، بسبب محدوديّته، عاجزٌ عن إدراك معنى اختلاف الله وقداسته. لذلك، فإنّ كُلّ المحاولات البشريّة لتقديم صورة عن الله أنتجت آلهة تمتلك قوى خارقة، ولكنّها في الصميم تشبه البشر، ولا يوجد تناسق أو تناغم بين صفاتها. ولأنّ الله يعي

عجز الإنسان هذا، فقد نهاه عن محاولة تشبيهه بشيء بأيّة طريقة كانت (خروج ٩:١٤، اشعياء ٤٦:٩). وفي الوقت ذاته، كانت ظهورات الله لشعبه في العهد القديم دائمًا مصحوبة بالرعد والبروق والنار، ليُعلِّم الإنسان أنّ هنالك حجابًا وحاجزًا بيننا وبينه، وإن أردنا عبوره سنموت. «وَكَانَ جَمِيعُ الشَّعْبِ يَرَوْنَ الرُّعُودَ وَالْبُرُوقَ وَصَوْتَ الْبُوقِ، وَالْجَبَلَ يُدَخِّنُ. وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ ارْتَعَدُوا وَوَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ، ١٩ وَقَالُوا لِمُوسَى: «تَكَلَّمْ أَنْتَ مَعَنَا فَنَسْمَعَ. وَلاَ يَتَكَلَّمْ مَعَنَا اللهُ لِئَلاَّ نَمُوتَ». (خروج ٢٠:١٨-٢٠).

> الإله الذي يتّصف بالحبّ والنعمة والرحمة، ولكنّه بلا سيادة أو عدل أو قداسة أو غضب، إنّما هو صنم.

## الأقنوم الثاني: فساد الإنسان

«[١٨]...أَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ، الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ. [١٩] إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ، لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ، [٢٠] لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَه، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ. [٢١] لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أو يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ.» (رومية ١:١٨-٢٢)

لا تتمثّل مشكلة الإنسان في الكتاب المُقدّس في عجزه عن فعل الخير وعن تفادي الشرور. بل حالته مزرية أكثر من ذلك بما لا يُقاس، ولا يوجد ما يمكن أن يفعله ليُصلح تلك الحالة، لأنّ مشكلته الأساسيّة تكمن في طبيعته الفاسدة، وليس في الفساد الذي يخرُج منها. فالإنسان ميّتٌ روحيًّا ولا توجد فيه نسمة حياة، وخطوط الاتّصال والتواصل بينه وبين السماء مقطوعة بالكامل منذ أن سقط آدم من محضر الله.

[١٢]"بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ... [١٨]

وبِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إلى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ... [١٩] مَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً" (رومية ٥: ١٢، ١٨، ١٩). لقد ورثنا الموت الذي أصاب آدم تمامًا كما يرث الطفل لون جينات أبيه، فوُلِدنا أمواتًا بالذنوب والخطايا نحمل طبيعة مُستعبدة للشرّ، "[٢٩] مَمْلُوئِينَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزِنًا وَشَرّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ، مَشْحُونِينَ حَسَدًا وَقَتْلًا وَخِصَامًا وَمَكْرًا وَسُوءًا، [٣٠] نَمَّامِينَ مُفْتَرِينَ، مُبْغِضِينَ للهِ، ثَالِبِينَ مُتَعَظِّمِينَ مُدَّعِينَ، مُبْتَدِعِينَ شُرُورًا، غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ، [٣١] بِلا فَهْمٍ وَلاَ عَهْدٍ وَلاَ حُنُوٍّ وَلاَ رِضىً وَلاَ رَحْمَةٍ" (رومية ١:٢٩-٣١). بناءً على ذلك، فإنّ أعمال الإنسان الشرّيرة ليست هي التي تجلب غضب الله، بل إنّ هذه الأعمال هي نتيجة للطبيعة الشرّيرة التي وُلدنا بها، المختلفة عن طبيعة الله، والتي بسببها نحن منفصلون عنه.

انتشرت مؤخّرًا عبر وسائل التواصل المُختلفة حادثة مثيرة للضحك وللحُزن في الوقت عينه، إذ قام أحد الأشخاص في بيروت بتسجيل فيديو حلقة اللوتو (اليانصيب) الأسبوعيّة التي تُبثّ عبر التلفاز، ثم قام بشراء بطاقتين واحدة منهما تحمل أرقام البطاقة الرابحة نفسها. وفي الأسبوع التالي، جاء هذا الشخص إلى منزل صديقه حيث اعتادا مشاهدة البرنامج معًا وأعطاه

الورقة التي تحمل أرقام الأسبوع الماضي الرابحة. وانتظر الرجل حتّى ترك صديقه الغرفة لدقائق وقام بتشغيل حلقة الفيديو التي سجّلها عبر التلفاز ليوهم صديقه، عندما يعود، أنها تُبثّ مباشرةً على الهواء. ولنا أن نتخيّل ما حدث. فعند إعلان الأرقام الرابحة، قفز الرجل من مكانه كالمجنون، وبدأ يرقص بشكل هستيريّ لأنّه ظنّ أنّه ربح الجائزة الأولى. سمعت زوجته الصراخ وهرعت للغرفة لترى ماذا حدث. وهنا يأتي الجزء المُحزن. إذ طلب الرجل من زوجته وهو يرقُص بشكل هستيريّ أن تجمع أغراضها وأن تُغادر المنزل لأنّه سيُطلّقها. وقال لها إنّه لم يكن يحتمل الحياة معها، ولكنّه كان مضطرًّا إلى ذلك بسبب فقره، وبما أنّه قد أصبح غنيًّا الآن، فهو لا يحتاج إليها. وبطبيعة الحال، اكتشف الرجل بعد ذلك أنّ صديقه كان يُمازحه، لكن دعوى الطلاق التي أقامتها عليه زوجته أصبحت أمام القاضي.

إنّ حالة الإنسان مثيرة للضحك والحزن مثل حالة هذا الرجل بالضبط. فهو يتمسّك بالله طمعًا وخوفًا وليس محبّةً به، فأمام الله نحن نظُنّ بأنّنا أغنياء واستغنينا، بينما نحن في الحقيقة فقراء مُعدَمون. لقد أدّى تصوُّر الإنسان الخطأ لنفسه إلى نتائج وخيمة. وكان هذا التصوّر مدعومًا من الأديان المختلفة، حيثُ مهّدت

الطريق أمامه ليعتقد أنّ حالته أمام الله ليست سيّئة تمامًا، وأنّ الطريق إلى الله مفتوحة عبر طاعة وصاياه وفرائضه وطقوسه. نتيجةً لذلك، تصوّر الإنسان أنّه غير مديون لله بشيء، بل إنّه لا يستحقّ الألم الذي يصيبه.

إنّ الله هو الخير المُطلق الذي إن وُجِد غاب الشرّ، تمامًا كالنور الذي إن وُجِد غابت الظُلمة. فحين أراد آدم أن يُصبح مثل الله بأكله من تلك الشجرة (تكوين ٣:٥)، سقط من سماء النور إلى أرض الظلام، لأنّه أراد شيئًا لنفسه، فأصبح مُختلفًا عن الله الكائن المعطاء (من نفسه) على الدوام. فاستوجبت هذه الحالة التي أصبح عليها آدم غضب الله، وحقَّ عليه وعلى نسله الدينونة العادلة.

إنّ كُلّ أفعال الإنسان التي يظُن أنّها صالحة، هي طالحة صادرة عن طبيعة شرّيرة تتمركز حول ذاتها، وهي لا تشبه الله بشيء. وكلّ مُحاولات الإنسان للعودة إلى الله بواسطتها فاشلة كمحاربة الريح. ولو عاش الإنسان مئة ألف عام يبكي أمام الله طالبًا الرحمة، لما استجاب الله له، لأنّ الله، كما سبق وأشرنا، لا يُساوم على عدالته ولا تُعطّلها رحمته.

## تمايز طبيعة الإنسان عن طبيعة الله

قداسة الله معلنة للإنسان في الطبيعة، وفي الضمير، وفي الوصايا التي أعطاها الله لشعبه، وهي مُعلنة أخيرًا من خلال المسيح في العهد الجديد. والهدف من إعلان الله عن قداسته للإنسان هو وضع الجميع تحت حكم الدينونة، حيث إنّ رؤية الإنسان لقداسة الله التي لا تقبل الشرّ، وفي المقابل لشروره، هي التي تناقض طبيعة الله، وتُظهر الدينونة الحتميّة التي نستحقّها. أظهر الله هذه القداسة في البدء عند طرد آدم من الجنّة حيث "مَلَكَ الْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى، وَذلِكَ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُخْطِئُوا عَلَى شِبْهِ تَعَدِّي آدَمَ" (رومية ٥:١٤)، أي إنّ الذين عاشوا في الفترة الفاصلة بين آدم وموسى ولم يكن عندهم وصيّة يكسرونها، كانوا تحت حُكم الموت. وأمّا كلّ الأمم الباقية في أيّ مكان وزمان، فهم قادرون على إدراك فسادهم من خلال ضمائرهم التي تحتجّ على طبيعتهم وشرورها. "الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ" (رومية ٢:١٤). أمّا بالنسبة لشعب إسرائيل والذي كانت تعاملات الله معه مثالًا لتعاملاته مع كلّ البشر فيما بعد (١ كورنثوس ١٠:١١)، فقد أعطاهم الله وصاياه (الناموس) عن طريق موسى، تلك الوصايا التي

تعكس الله وطبيعته لأنّها خرجت من عنده، وتُناقض طبيعتنا. وفي النهاية جاء ناموس المسيح المُلوكيّ متمّمًا لكُلّ الإعلانات، ليضع الجميع تحت حُكم الموت من آدم حتّى نهاية الزمان.

٣٣«يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! ٣٤ «لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟ أو مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟ ٣٥ أو مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ؟» (رومية ١١: ٣٣-٣٥)

> إنّ أكثر الأفكار شرًّا والتي تسرّبت إلى عقل الإنسان هي أنّ الإنسان، بطريقة ما، يستطيع أن يُحسّن نفسه لكي يستطيع أن يعيش مع الله القُدّوس

## الأقنوم الثالث: عمل المسيح الكامل

«الإنسان في رحلة بحث عن مُخلّص، وهذا هو سبب ضياعه المستمرّ.» كلمات سمعتها من طبيب نفسيّ مُلحد تُلخّص بالفعل حالة الإنسان. ليس اليهود فقط من ينتظرون مُخلّصًا سيظهر لإنقاذهم يومًا ما. بل إنّ السواد الأعظم من البشر ينتظرون مجيء مُخلّص يتوقّعون قدومه بأسماء وطُرق مُختلفة. فبينما يعتقد اليهود أنّ مُخلّصهم هو ذلك القائد السياسيّ الذي سيأتي لينصرهم على أعدائهم ويمنحهم مُلكًا أبديًّا لا إنتهاء له، يعتقد البعض الآخر أنّ المُخلّص هو الذي سيأتي لإنقاذ العالم من الألم والشرّ، لكن جاء المسيح ليُعلن للبشر ما هو الخلاص الحقيقيّ الذي يحتاجه الإنسان.

يُسجّل لنا العهد الجديد مواجهات كثيرة ومتكرّرة بين المسيح ورجال الدين اليهود دارت حول موضوع الخلاص. فقد أشارت التوراة وكُتب الأنبياء بكُلّ وضوح إلى حاجة إسرائيل إلى مُخلّص روحيّ. ويُعلن تاريخ اليهود المُسجّل والمرويّ عن سقوطهم المُتكرّر في حفظ وصايا الله، إلّا أنّهم وقفوا أمام المسيح بكلّ وقاحة وادّعوا أنّهم بلا عيب روحيًّا، وبأنّ طاعتهم للناموس قادرة على تخليصهم، واحتياجهم الحقيقيّ هو لمخلّص عسكريّ يقف

معهم ضدّ أعداء أمّتهم. لكنّ المسيح نسف تلك الادّعاءات حين فسّر لهم الناموس قائلًا:

٢١«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. ٢٢ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ..... «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ. ٢٨ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ'' (متّى ٥: ٢١-٢٧).

لقد ظنّ شعب إسرائيل أنّهم قد حفظوا ناموس الله، حيث إنّهم لم يقتلوا ولم يزنوا ولم يسرقوا. لكنّ المسيح أوضح لهم أنّ الله لم يقصد القتل الحقيقيّ الذي يؤدّي إلى الموت، بل قصد مجرّد الإساءة بالفكر أو بالقول إلى أخينا الإنسان. وشرح كيف أنّ الزنى بالنسبة لله ليس الممارسة الفعليّة للجنس، بل هو مُجرّد التفكير بامرأة أخرى بشهوة. لقد أعلن المسيح أنّ مشكلة اليهود ليست في الممارسات الخارجيّة، بل في الطبيعة ذاتها.

وكما فشل اليهود في إدراك حقيقة فسادهم وطبيعة الخلاص الذي يحتاجونه، عجز مثلهم باقي البشر حين اعتقدوا أنّهم قادرون على رشوة الله ببعض الأعمال الصالحة للخلاص من حُكم الله على طبيعتهم الفاسدة. وتصوّروا أنّ الله ملزم بمكافأتهم نتيجة التزامهم الأخلاقيّ. لكنّ الحقائق التي تضرب ثقة الإنسان هي الدوافع وراء أعماله منذ لحظة استيقاظه في الصباح حتّى عودته إلى الفراش في المساء. فالإنسان يُصلّي ويصوم ويتبرّع للفقراء من أجل مكاسب شخصيّة يُحقّقها أمام الله، أو لكي يمنح نفسه شعورًا ذاتيًّا بالبرّ. وأعمال الإنسان بجملتها ناتجة عن طبيعة شرّيرة أعلن الله غضبه عليها. وإن كانت الطبيعة مُدانة، فكم بالحريّ الأعمال الناتجة عنها؟!

لقد كانت كلمات المسيح صادمة جدًّا لكُلّ من سمعه، لأنّ الأمور لو كانت كما يقول حقًّا، فمن إذًا يستطيع أن يخلُص؟ وهذا السؤال هو السؤال نفسه الذي طرحه التلاميذ على الربّ بعد أن بُهتوا من تعليمه (متى ١٩: ٢٥).

من يستطيع أن يخلُص؟ لا أحد يستطيع أن يخلُص. لذلك حمَل المسيح صليبه وتوجّه إلى الجلجثة. وهناك اجتمعت عليه ذنوب الذين أراد الله تخليصهم. فنظر الله ورأى فيه كُلّ الشرّ

الذي فينا، فسقط غضب الله عليه وكسره، وانسحق المسيح تحت دينونة الله العادلة التي نستحقّها نحن، وسَحق بموته الموت الذي يجب أن نموته نحن.

لقد كانت تلك اللحظة قمّة التاريخ التي حضّر لها الله منذ البداية. فالمسيح كان موجودًا في اللباس الذي ألبسه الله لآدم وحوّاء بعد أن عرّتهما الخطيئة (تكوين ٣). وهو كبش الفداء العظيم الذي افتدى الله به إسحق من تحت خنجر إبراهيم (تكوين ٢٢). وهو فُلك النجاة الذي خلّص نوح ومن معه من طوفان غضب الله (تكوين ٥). وهو هوشع، الكاهن العظيم، الذي لبس ثيابنا المتّسخة في محضر الله كما حلم زكريّا (زكريا ٣). وكما رفع موسى الحيّة في البرّيّة، التي كانت هي ذاتها الداء، ليخلُص كلّ من ينظر إليها (عدد ٩)، هكذا رُفع المسيح على الصليب حاملًا الخطيّة التي هي سبب دائِنا، ليصبح بموته دواءً لكلّ من ينظر إليه (يوحنا ٣). وهو الذي لم يفعل خطيئة، بل كان يستحقّ البركة، لكن صار خطيئة لأجلنا، وحمل اللعنة مكاننا (٢ كورنثوس ٥:٢١).

## البرّ المنسوب Imputated Righteousness

لقد برّرنا المسيح بموته من الذنب رغم أنّنا لسنا أبرياء منه. لكنّه أعطانا أكثر من ذلك أيضًا. فقد عاش مكاننا الحياة التي يتوجّب علينا أن نعيشها، وأطاع كُلّ وصايا الله التي يجب علينا طاعتها. يشبه الأمر شخصًا مديونًا بمليون دولار للبنك، وهو عاجزٌ عن التسديد، فيأتي شخص غنيّ جدًّا ويدفع عنه الدَّيْن. ليس ذلك فقط، بل يقوم الشخص الغنيّ بتسجيل حسابه الشخصيّ باسم هذا الشخص.

لقد كان آدم هو الأب الذي ننتمي إليه، والذي بسببه أصبحنا تحت دينونة الله العادلة، وذلك دَيْنٌ عظيم جدًّا لا قُدرة لنا على سداده، فجاء المسيح وسدّد الدَّيْن الذي علينا بموته مكاننا على الصليب، فأصبحنا نقف أمام الله وكأنّنا نحن الذين مُتنا «كَذلِكَ أَنتُمْ أَيْضًا احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتًا عَنِ الْخَطِيَّةِ» (رومية ٦:١١) ولكن لم تكن الدينونة هي المشكلة فحسب، بل طبيعتنا الفاسدة التي نتجت عن السقوط والعاجزة عن فعل الصلاح. فجاء المسيح وعاش حياة بارّة كاملة أمام الله، ووُضِعت تلك الحياة التي عاشها هو في حسابنا، فأصبحنا أمام الله وكأنّنا نحن الذين أطعنا «وَلكِنْ أَحْيَاءً للهِ بِالْمَسِيحِ

يَسُوعَ رَبِّنَا» (رومية ٦:١١). لقد فاضت علينا محبّة الله فأخذت الدينونة التي نستحقّها ووضعتها على المسيح، فوقف المسيح أمام الله مُدانًا وكأنّه نحن، ومن ثَمّ، أخذت كلّ الصلاح الذي حقّقه المسيح ووضعته علينا، فوقفنا نحن أمام الله وكأنّنا المسيح. وهكذا، عاش المسيحُ من أجلِنا قبلَ أن يموت من أجلنا، عاش الحياة التي يجب أن نعيشها، ومات الموت الذي يجب أن نموته.

اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ». (غلاطية ١٣:٣)

## الخليقة الجديدة

٣مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي حَسَبَ رَحْمَتِهِ الْكَثِيرَةِ وَلَدَنَا ثَانِيَةً لِرَجَاءٍ حَيٍّ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مِنَ الأَمْوَاتِ، ٤ لِمِيرَاثٍ لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ، مَحْفُوظٌ فِي السَّمَاوَاتِ لأَجْلِكُمْ، ٥ أَنْتُمُ الَّذِينَ بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ، بِإِيمَانٍ، لِخَلاَصٍ مُسْتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَنَ فِي الزَّمَانِ الأَخِيرِ" (١بطرس ٣:١).

يُحكى عن رجل من مدينة زغرتا في شمال لبنان في السبعينيّات من القرن الماضي، أنّه كان يشاهد مع أهالي قريته فيلمًا عن صلب المسيح، ولشدّة تأثّر الرجل بما شاهده، أخرج مسدّسه وأطلق الرصاص على الشاشة لينتقم من الذين يعذّبون المسيح ويصلبونه!

الإنسان الطبيعيّ لا يُدرك احتياجه إلى الفداء، ولا يستوعب كيف أنّ رحمة الله لا يُمكن أن تَحُلّ عليه إن لم تتحقّق عدالته أوّلًا. لذلك يرى أنّ الصليب بلا معنى، وأنّ موت المسيح وآلامه أمورٌ غير ضروريّة. لكنّ موت المسيح يُحيي فينا طبيعة جديدة قادرة على إدراك هذه الأمور، وبعدَ أنْ كُنّا عميانًا عن رؤية احتياجنا إلى هذا الخلاص العظيم، أصبحنا نبتهج بموت ابن الله على صليب العار من أجلنا، ونسجد بخشوع أمام الله الذي تبنّانا بعد أن كُنّا أعداءً له.

ولو أدرك صديقنا من زغرتا هذه الحقيقة، لابتهج فرحًا بصلب المسيح الذي صالحه مع الله. على المقياس نفسه، رفض اليهود المسيح المصلوب وأرادوا المسيح الملك، ولكنّه "عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكًا، فانْصَرَفَ أَيْضًا إِلى الجَبَلِ وَحْدَهُ." (يوحنّا ٦:١٥). لقد رفض المسيح أن يَمْلُك عليهم،

لأنّ الله لا يُمكن أن يكون ملكًا على البشر قبل تبريرهم. فلو ملك الله العادل على الناس في المسيح من دون فداء، لاستوجب إدانتهم على خطاياهم. لذلك، كان موت المسيح حتميًّا لكي يُنفِّذ حكم الله على الخليقة القديمة، ويفتدي الإنسان من الدينونة والموت، ويخلق إنسانًا جديدًا حسب صورة الله.

”إن كان أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا“ (٢ كورنثوس ٥:١٧).

كما وُلِد الإنسان من آدم بطبيعة فاسدة تحت الغضب، هنالك أيضًا ولادة جديدة من دونها لن يستوعب أحد أمور الله، ولن يشتاق إلى السماء أو يصل إليها لأنّه «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ» (يوحنّا ٣:٣)، تمتلك هذه الخليقة الجديدة طبيعة صالحة تُحبّ الله، وتُدرك جماله وروعته وقداسته، والحاجة إلى كفّارة عظيمة لكي تُنقذه. أي أنّ هذه الطبيعة تهتمّ بأمور الله وتكترث للعلاقة بينه وبين الإنسان. وهذه الطبيعة الجديدة مولودة من الله، لأنّ الولادة أمرٌ لا يمتلك الإنسان السُلطة لتقريرها، [١٣]وَكُلّ اَلذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ (يوحنّا ١:١٣)

وهو الذي أَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلادَ اللهِ [١٢] فقبلوا المسيح كمُخلّص لهم. لا تعرف طبيعة الإنسان القديمة الميّتة بالذنوب والخطايا أمور الله ولا تُحبّه ولا تطلبه ولا تُريده، بل تُريد أن تكون مُستقلّة من دون أية سُلطة عليها. لذلك، أنعم الله برحمته على الذين آمنوا وانتظروا الخلاص بطبيعة جديدة أهّلتهم لفعل ذلك لأنّه «لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ.» (١ كورنثوس ١٢:٣) ولا يستطيع أحد أن يُقبِل إلى معرفة المسيح إِنْ "لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (يوحنّا ٦:٤٤). لم يقدّم الإنسان شيئًا لخلاصه على الإطلاق، بل إنّ هذا الإيمان الذي تمتلكه الطبيعة الجديدة ما هو إلّا عطيّة الله، [٨]"لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. [٩] لَيْسَ مِنْ أَعْمَال كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ. [١٠] لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَال صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا" (أفسس ٢:٨-١٠).

> لا يستطيع الإنسان من دون الولادة الجديدة أن يؤمن، فالإيمان هو نتيجة للولادة الجديدة.

# التقديس

من يُصرّ على استعمال الناموس لإصلاح حال البشر، يتجاهل الأخبار السعيدة. والإنجيل بالنسبة إليه هو عبارة عن أخبار سيّئة. فالمسيح لم يمُت لدفع الدَّيْن الذي علينا بسبب خطيئة آدم فحسب، بل عاش كذلك لدفع الدَّيْن الذي علينا في الوصايا (كولوسي ٢:١٤). وكُلّ من هم في المسيح لا يقعون تحت دينونة الله لكسرهم وصاياه، بل في الحقيقة هم لا يكسرون وصاياه أصلًا لأنّه لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُ ذلِكَ أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ (رومية ٧:١٧).

إن لم يكُن عمل المسيح مكاننا حجرَ الأساس الذي يستند إليه كلّ مؤمن في المسيح، فإنّ النموّ الذي يسعى إليه سيكون مجرّد إخضاع للطبيعة القديمة بالخوف أو بالطمع، وليس نموًّا حقيقيًّا للطبيعة الجديدة التي تُحبّ الله وتفكّر مثله. وكلّ مَنْ لا يتّخذ مِنْ عمل المسيح مكانه في الحياة والموت نقطة انطلاق لأيّ تقدّم، سيبقى عبدًا للخوف من دينونة الخطيّة التي احتملها المسيح. فلا يتغذّى التقديس على الناموس، بل على الإنجيل، على تلك الأخبار السعيدة بأنّ الخلاص الذي قدّمه المسيح

لكلّ مَنْ هم لهُ كاملٌ لا يتغيّر ولا يفنى، وثابت لا يهتزّ نتيجة الظروف والأحداث، ولا تؤثّر فيه أعمالنا صعودًا أو نُزولًا. فهو كسطح الطاولة لا تعرّجات فيه، ولا يُمكننا فعل أيّ شيء لكي يُحبّنا الله أكثر، ولا يمكننا فعل أيّ شيء لكي يُحبّنا أقلّ. فهو يُحبّنا كما يحبّ ابنه، غير ناظر إلى خطايانا بعد أن رماها في بحر النسيان، يوم وقف أمامه آدم الثاني "المسيح" ممثّلًا رسميًّا لنا، وأبًا فدراليًّا جديدًا، بعد أن كان يُمثّلنا أمامه آدم الأوّل.

٩المسيح «بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضًا. لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدُ. ١٠ لأَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَالْحَيَاةُ الَّتِي يَحْيَاهَا فَيَحْيَاهَا للهِ. ١١ كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتًا عَنِ الْخَطِيَّةِ، وَلكِنْ أَحْيَاءً للهِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا. ١٢ إِذًا لاَ تَمْلِكَنَّ الْخَطِيَّةُ فِي جَسَدِكُمُ الْمَائِتِ لِكَيْ تُطِيعُوهَا فِي شَهَوَاتِهِ، ١٣ وَلاَ تُقَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ إِثْمٍ لِلْخَطِيَّةِ، بَلْ قَدِّمُوا ذَوَاتِكُمْ للهِ كَأَحْيَاءٍ مِنَ الأَمْوَاتِ وَأَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ بِرٍّ للهِ. ١٤ فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ.» (رومية ٦)

لكي نحيا لله بالمسيح، ينبغي أن ندرك أنّ الموت الذي ماته المسيح كان من أجلنا، وأنّ الحياة التي يحياها هي مكاننا. وإنْ فشلنا في ذلك فلن نحسب أنفسنا أمواتًا عن الخطيّة، وستبقى تملك في جسدنا المائت، لأنّها في قوّة دينونتها ستبقينا سُجناء لديها بالخوف. هذه هي الحرب التي يحياها المؤمنون بالمسيح. فهي ليست حربًا بين طبيعة تُريد أن تفعل الصلاح وطبيعة تُريد أن تفعل الشرّ، بل هي بين طبيعة تُريد أن تتبرّر بالأعمال (الجسد)، وطبيعة تُريد أن تتبرّر بالإيمان (الروح). بين طبيعة لا تكتفي بما فعله المسيح وستبقى تحاول التبرّر من الخطيّة إلى النهاية، وطبيعة تنظر إلى المسيح فتجد فيه التبرير والبرّ والقبول غير المشروط.

إنّ النموّ في الإيمان هو نموّ في معرفة الحقّ عن قداسة الله الكاملة، وعن فسادنا الكُلّي، وعن عمل المسيح الكامل. هذا هو الثالوث الثاني الذي يجب أن نؤمن به، وأن نحيا كُلّ لحظة وهو أمام أعيننا. إنّ التقديس Sanctification هو تلك العمليّة التي ننمو فيها يومًا بعد يوم في قبول هويّتنا الجديدة التي منحنا إيّاها الله بالإيمان، وفي رفْضنا أن نكون مُمثّلين بالطبيعة الشرّيرة الخاطئة التي فينا. لذلك، إنْ فَرِحْنا بالصلاح الذي نفعله وكأنّه

يرفعنا أمام الله، أو إنْ شعرنا بالحزن على الشرّ الذي ينتج عنّا وكأنّه يجلب علينا غضب الله، فإنّنا بذلك نهين المسيح وعمله. والموقف السليم، إن أطعنا وصايا الله، هو أن نفرح لأنّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ (فيلبي ٢:١٣)، بينما إِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ، فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ (رومية ٧:٢٠). وهذه مسألة تكفّل المسيح بها.

> هذا هو إيماننا: ليست الولادة الجديدة والإيمان والتقديس من صُنع إرادة البشر وقوّتهم، بل هي ناتجة عن قوّة الرب العظيم ونعمته التي لا تُقاوم

## اكتمال العناصر

لا تعني محبّة الله شيئًا للمديون إن لم يُدرك حجم الدَّيْن الذي عليه. ومن دون معرفة محبّة الله لا يمكن للإنسان الصمود في وجه حقيقة سيادة الله فقط، حيث ستسحقه تلك الحقيقة وستُجرّد الله من صلاحه أمامه. ولكي نُدرك هذه المحبّة العظيمة التي ظهرت في صليب المسيح، «لأنّه هكذا أحبّ الله العالم حتى بذل إبنه الوحيد لكي لا يَهْلِك كُلّ من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديّة" (يوحنا ٣:١٦)، علينا أن نفهم معنى قداسة الله، واتّساق صفاته، ولماذا وجب علينا حُكم الموت بسبب فساد طبيعتنا وتمايزنا الرهيب عن طبيعته. ومن ثَمّ، يجب أن نرى كُلّ الاستحقاقات التي حقّقها المسيح من أجلنا لا جزءًا منها فقط. ستقودنا هذه المُعادلة الذهبيّة لكي نرى الألم بطريقة جديدة، حيث الله هو سيّد الموقف وهو المُسيطر على كُلّ شيء، وصلاحه ضامن أنّ الألم ليس بلا هدف أو معنى، وسنتعلّم أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ معًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ.» (رومية ٨:٢٨) وحينها، نستطيع أن ننظر إلى الآلام التي تُصيبنا في هذا العالم، إن كُنّا جلبناها على أنفسنا، أم جلبها علينا مُسبّبٌ آخر، كجزء من مُخطّط الله الصالح، وليست مجرّد نتيجة حركة عشوائيّة حدثت

عن طريق الخطأ، أو نتائج لقراراتٍ خاطئة حصلت بالصُدفة. وعلى الرغم من أنّنا نتحمّل المسؤوليّة بالكامل عن القرارات التي نتّخذها، إلّا أنّ كلّ شيء في النهاية يسير بطريقة مثاليّة لتحقيق مشيئة الله الذي أحبّنا وفدانا. سننظر لكلّ ما يُصيبنا كما لو أنّه أمرٌ يحصل من أجلنا وليس مصيبة تُصيبنا. وفي المقابل، لن يُحدّد وجود هذه الآلام أو غيابها مقدار محبّة الله لنا، لأنّ محبّته مُرتبطة بطبيعته التي قبلتْنا بفسادنا وخلّصتنا وتعمل على تشكيلنا حتى نكون مثله في نهاية المطاف.

ومن دون الإيمان بسيادة الله، سيقتلنا الندم حين نتألّم، وسنغرق في التفكير في كُلّ تلك الطُرق التي كان من الممكن تفادي هذه النتيجة بها. ومن دون الاتّكال الكامل على سيادة الله، سنحيا بالخوف من المستقبل وممّا يُمكن أن يأتي به علينا من ويلات. أمّا تسليمنا لهذا الحقّ فيقودنا إلى السلام حتمًا. فأحداث الماضي كانت مشيئة الله، والمستقبل مضمون لأنّه بين يديه.

وأمّا على مستوى المُجتمعات، فإنّ إدراكنا للإنجيل (سيادة الله المُطلقة، قداسته، فساد طبيعتنا)، إلى جانب اختبارنا لطبيعته المعطاءة والمُضحيّة والمُحبّة في عمل المسيح

الكامل في حياتنا بوساطة الروح القُدس، سيُحوّل صفاتنا ويُخرجنا من التمركُز حول ذواتنا، لنُصبح مثله معطائين وممتلئين بالسلام الذي يفيضُ منّا فرحًا وتواضعًا، غير خائفين ممّا سيأتي به المُستقبل، مُحبّين للآخر ومُقدّمين إيّاه على أنفسنا، وقادرين على رؤية حقيقة أنفسنا وفسادنا واحتياجنا إلى رحمة الله وضعفاتنا المُشتركة، قابلين بعضنا بعضًا، ومهتمّين بعضنا ببعض كما يهتمّ بنا الله دائمًا.

[٣] مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، [٤] كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، [٥] إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَّا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ، [٦] لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ، [٧] الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ بِدَمِهِ، غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ، [٨] الَّتِي أَجْزَلَهَا لَنَا بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَفِطْنَةٍ، [٩] إِذْ عَرَّفَنَا بِسِرِّ مَشِيئَتِهِ، حَسَبَ مَسَرَّتِهِ الَّتِي قَصَدَهَا فِي نَفْسِهِ، [١٠] لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، فِي ذَاكَ [١١] الَّذِي فِيهِ أَيْضًا نِلْنَا نَصِيبًا، مُعَيَّنِينَ

سَابِقًا حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ، ١٢ لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ سَبَقَ رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ. ١٣ الَّذِي فِيهِ أَيْضًا أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ، ١٤ الَّذِي هُوَ عُرْبُونُ مِيرَاثِنَا، لِفِدَاءِ الْمُقْتَنَى، لِمَدْحِ مَجْدِهِ. (أفسس ١:٣-١٤).

# الفصل الثالث

## النعمة المجّانيّة

”لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ،
وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ،
وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ
الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا“

# قوّة تأثير الدين

«قُلْ لي من تعبُد، أقلْ لك من أنت.» لقد أثبتت هذه المقولة صحّتها جيلًا بعد جيل. وليس المقصود بالمعبود هنا اسمه بل صفاته، حيث يمكن لجماعات مختلفة أن تعبد الإله نفسه من حيث الاسم، بينما يكون لكلّ جماعة إله مختلف الصفات عن الجماعة الأخرى. كان أحد الأطبّاء النفسيّين في الولايات المتّحدة يشترط على مراجعيه أن يكتبوا صفات الله الذي يؤمنون به قبل الشروع بالعلاج. لم يكن يكتفي بسؤالهم إن كانوا متديّنين أم لا، ولم يكن يسأل عن الدين الذي ينتمون إليه، بل ما كان يهمّه هو كيف ينظرون إلى الله؟ هل هو موجود أم لا؟ كائن عاقل أم قوّة عمياء؟ مُحبّ للجميع أم يقتصر حُبّه على مجموعة ما؟ كان السبب وراء قناعة الطبيب بأنّ صفات الإله كما يراها الفرد، تؤثّر بشكل مباشر ورئيسيّ في كلّ تفاصيل حياته بشكل أبعد ممّا نتصوّر. ما الذي يُمكن أن يدفع سيّدة إلى دسّ السُمّ بيديها في فم ابنها قبل أن تقتل نفسها مع أكثر من ٩٠٠ شخص آخر في أكبر حادثة انتحار

جماعيّ في التاريخ؟[١٦]

وما الذي يدفع أُمًّا أن تلفّ بيديها الحزام الناسف حول خصر طفلها الصغير؟ ما السبب الذي يمكن لأجله أن يقطع شخصٌ ما رأس أبيه،[١٧] أو يدفع مجموعة من الأشخاص إلى خطف طائرات وصدمها في عدّة مبانٍ وقتل آلاف الناس الأبرياء؟ لا توجد أسباب كثيرة تدفع شخصًا ما إلى قتل أخيه الإنسان والتهام قلبه أمام عدسات الكاميرا. إن بحثنا عميقًا، سنجد أنّ هذه الأفعال مرتبطة دائمًا بالطريقة التي يرى بها هؤلاء الناس الله. إنّ الحالة الوحيدة التي يُمكن أن يُرتكب الشرّ فيها من دون أدنى شعور بالذنب، هي تلك التي تُعتبر خدمة لله.

إنّ ضمير الإنسان شاهدٌ أمامه أنّه خاطئ ومُدان، وتنتهي المفاوضات لإحلال السلام بينه وبين الله دائمًا بالفشل. لذلك، يبحث الإنسان عن الخلاص في كلّ زوايا حياته. وهنا تأتي الأديان لتُقدّم له طريقة سهلة للتصالح مع الله، بمجموعة من القوانين والطقوس الدينيّة لكي يُنفّذها حتى يرضى الله عليه ويُنجّيه في النهاية. لكنّ الأديان خدعت البشر، حيث قدّمت

١٦ Read more about Jonestown Massacre at www.britannica.com/event/Jonestown-massacre

١٧ ذكرت المصادر الإسلاميّة المتعدّدة حادثة قطع أبو عبيدة لرأس أبيه في غزوة بدر لأنّه كافر

لهم مشكلتهم بطريقة زائفة، وأعطتهم حلًّا زائفًا أيضًا. ولم يسدّ السلام الوهميّ الذي قدّمته لهم الهوّة التي بين الإنسان وربّه. فجاء الإنسان بطقوس أصعب وفرائض أبشع، محاولًا من خلالها بذل مجهود أعظم وأعنف تقرُّبًا لله. فقدّم في سالف الأزمان أبناءَه على مذبح الآلهة، وما زال يُقدّم حياته وحياة أطفالِه فداءً لذلك الإله حتّى اليوم بأنواع وطُرق مختلفة. ولكنّ الحال لم يتغيّر، بل إنّ بحثَ الإنسان عن طريقة لإزالة الحاجز بينه وبين الله، حوّله إلى مخلوق بشع وشرس لا يوفّر شيئًا في سبيل تخليص نفسه.

إنّ البحث عن التبرير هو أصل كلّ الشرور. فمن أجل التصالح مع الله، يُمكن أن يفعل الإنسان أيّ شيء، حتّى لو كان الثمن هو أن تلف أمٌ بيديها قنبلة حول خصر ابنها الصغير، أو حول خصرها، لكي تقدّم من خلال ذلك العمل خدمةً لله لعلّه يقبلها. ولا يقتصر تأثير احتياج الإنسان للمغفرة على تلك الأمور فقط، بل إنّ جزءًا كبيرًا من البشر ما زال حتى اليوم يربط بين قبول الله له وتفاصيل الحياة الصغيرة، مثل أيّ قدمٍ يدخل بها الحمّام، وكيف ينظّف أسنانه، وكيف يمارس الجنس، أو في أي سنٍّ ينبغي أن يُفرَض اللباس الشرعيّ على الفتيات الصغار. وكلّما زاد تداخل الوصايا الإلهيّة في تفاصيل الحياة، وكلّما زادت

قسوة الالتزام بها، زاد معها الشعور بالقُرب من الله، وتغذّى الشعور بالبرّ الذاتيّ، لأنّ نسبة قليلة من الناس فقط تستطيع الالتزام بكلّ تلك الفرائض والواجبات.

> يعمل الدين على تحويل القناعات غير المُثبتة إلى حقائق ثابتة بواسطة قوّة المؤسسات وعبر الأجيال المتتابعة

# غاية الناموس

ظهر أحد الإرهابيّين الذي قام بعمليّة انتحاريّة في سورية في شريط فيديو مُصوّر ليتحدّث قبل تنفيذه العمليّة. قال إنّه التزم طوال حياته بالفرائض التي طلبها الله منه، ولكنّه يبتغي من خلال تقديم حياته لله أن يحصل على اليقين من أنّه سيكون في النعيم. نرى هنا أنّه حتّى لو استطاع الإنسان الالتزام الحرفيّ بكلّ تفاصيله في الوصايا التي يُريدها الله منه، فسيبقى الشعور بعدم اليقين مُرافقًا له، لأنّه بكلّ بساطة لا يوجد برّ في الناموس، أي إنّه لا يوجد حِلٌّ من الذنب بواسطة الأعمال مهما عظُمت. ولكن هذه الحقيقة لم تثنِ الإنسان عن الاستمرار في محاولة الحصول على الخلاص بتلك الطريقة.

فَسَّر آينشتاين الغباء بأنّه فعل الأمر بالطريقة ذاتها دائمًا وتوقُّع نتائج مُختلفة في كلّ مرّة. والأمر شبيه بأن نقوم بالصراخ في وجه شخص مُقعد لكي يقوم عن الكرسيّ ويبدأ بالركض، ونعيد تكرار الصراخ كلّ يوم ونتوقّع منه أن يقوم ويسير على قدميه في نهاية الأمر. والأمر مثير للسخرية بلا شكّ. وتكرار الطريقة عينها من دون أيّ تعديلات، يعني أنّ الشخص قد تجاهل نتائج

الماضي الواضحة، وسيكون مصيره الحتميّ هو الفشل السابق ذاته. ومن وجهة نظر الدين، فإنّ هذا ما يفعله الله منذ آلاف السنين. فهو يُهدّد البشر بطاعة وصاياه وإلّا سيكون مصيرهم الجحيم، ويستمرّ في إرسال الرُسل والأنبياء لكي يُعطوا الناس شرائعه ووصاياه، بغضّ النظر عن فشلهم المستمرّ في طاعته. فهل حقًّا قام الله بفعل الأمر عينه بالطريقة نفسها مئات وربّما آلاف المرّات، ولم يتحقّق الهدف الذي أراده؟ هل تجاهل الله نتائج الماضي دائمًا وأبقى على الأسلوب نفسه والطريقة نفسها، رُغم أنّ التاريخ أثبت أنّ الإنسان عاجز عن طاعة أوامره؟ لماذا لم يُغيّر الله طريقته التي لم تنجح في دفع الإنسان إلى التغيير؟

كما رأينا في الفصل السابق، إنّ من ينظر لوصايا الله وشرائعه كأنّها أوامر يبتغي الله من خلالها إصلاح حال البشر، واختبارهم لتقرير مصيرهم النهائيّ، إنّما يُسيء لله. فمن يُصدّق أنّ هدف الله من إرسال الأنبياء هو دفع البشر لطاعة مجموعة من الوصايا والفرائض إنما يتّهم الله بالفشل. ومن المؤسف أنّنا ما زلنا نسمع هذا الاتّهام اليوم عبر مئات الآلاف من المنابر في بيوت العبادة المُختلفة التابعة لكلّ الأديان الرئيسية في العالم. وربّما يَحْسُن بمن يؤمنون هكذا عن الله، أن يتوقّفوا للحظة ويُسْدوا لإلههم نصيحة

بأن يجد طريقة أخرى، لأنّ أسلوب الوصايا والشرائع لم ينجح عبر الزمن في تغيير الإنسان، ولا يوجد ضمانة بأنّه سينجح الآن. بل إنّ محاولات الإنسان المتكرّرة لطاعة قوانين الله أدّت إلى إحداث تأثير عكسيّ، حيث غذّت لديه الشعور بالذنب الذي فاقم المشاكل النفسيّة، وترك أثره السلبيّ على علاقات الإنسان المتعدّدة، فزادت المرارة لدى الإنسان نتيجة شعوره الحتميّ بالرفض، وأصابت عدوى القبول المشروط كلّ نواحي الحياة.

لم تأتِ نواميس الله ووصاياه التي أعطاها لشعبه عبر موسى، أو تلك التي قالها المسيح في العهد الجديد، لكي تضع الإنسان أمام الخيار بالطاعة أو بالهلاك، ولم تهدف إلى إصلاح أحوال البشر في المقام الأوّل، وإنّما جاءت لكي تضع العالم تحت الدينونة، وتثبت للإنسان عجزه عن تحقيق المصالحة مع الله بنفسه. بكلمات أخرى، إنّ صُراخ الله في وجه الإنسان المشلول كان بِهَدف أن يتوقّف عن إنكار عجزه، وأن يستسلم أمام الله الذي أعدّ طريقة أخرى لخلاصه. أوامر المسيح ونواهيه في العهد الجديد ليست وصايا نقدر أن نلتزم حرفيًّا بها، بل هي أخبار تعيسة ومتطلّبات خياليّة لا يُمكن تحقيقها على الإطلاق. وهذا ما أرادنا المسيح أن نُدركه لكي نتوقّف عن المحاولة التي لا طائل منها. عند ذلك،

نتبع المسيح إلى حيث الصليب الذي صالحنا مع الله بموته بعد أن احتمل اللعنة التي نستحقّها نحن، وهذه هي الأخبار السعيدة.

يكمن غباء الإنسان في اعتقاده أنّه قادر على إصلاح الوضع بنفسه عبر محاولاته المستمرّة لطاعة ما لا يُمكن طاعته. فمن يعتقد ذلك هو أعمى عن رؤية سموّ نواميس الله وعظمتها. واعتقاده بأنّه قادر على طاعتها، دليل على استيعابه الرديء لمعنى تلك الوصايا وجوهرها. فالإنسان عاجز تمامًا، وليس جزئيًّا فقط كما يتخيّل، عن فعل أيّ شيء يُمكن أن يُحسب له أجرٌ عليه. وقوانين الله بمثابة مرآة يرى فيها عجزه ذلك وليست مجرّد لوائح تنتظر منه تنفيذها.

## ميزان الأعمال

ولكن يقول قائل إنّ هدف الله من إرسال وصاياه للناس لم يكن طاعة الإنسان الكاملة لكلّ صغيرة وكبيرة، بل كان لفرز الناس بين مؤمن وغير مؤمن، حيث سيضع الله أعمال الناس يوم الدينونة في ميزان. ومن تغلب أعماله الحسنة على أعماله الشرّيرة، سيكون مصيره النعيم. وهكذا، فإنّ الله لم يفشل في تكرار الأمر نفسه بالطريقة نفسها، بل هو يحقّق هدفه دائمًا في

دفع البشر إلى الخضوع له والفوز بالنعيم في النهاية.

لكن هذا الادّعاء لا يصلُح لعدّة أسباب. رأينا سابقًا كيف أنّ دوافع الإنسان وراء كُلّ أعماله هي سعادته الشخصيّة وليس فعل الخير أو الشرّ. لذلك، فإنّ كُلّ أعمال البشر ستوضع في كفّة واحدة من ذلك الميزان الافتراضيّ الذي سيستخدمه الله يوم الدينونة، لأنّها نابعة من طبيعة واحدة فاسدة متمحورة حول ذاتها تبحث عن مجدها الشخصيّ قبل أيّ شيء آخر. إضافة إلى ذلك، لا يمكن أن يتمّ اتّساق صفات الله إن كان الله سيغفر شرور الإنسان بهذه البساطة، لمجرّد أنّه فعل خيرًا مقابل كلّ تلك الشرور. فالحسنات بالتأكيد لا يُذهبن السيئات. زد على ذلك أيضًا أنّ الإنسان، كما رأينا في الفصل السابق، مديون لله بأن يفعل الخير فقط، وإن فعل، فذلك ليس فضلًا منه، وهو لا يستحقّ المكافأة عليه.

> حين نُقارن أعمالنا مع ناموس الله نكتشف كم نحن بعيدون عن تنفيذ مشيئته. وما نتعلّمه من هذه المقارنة ليس أنّنا ضعفاء فقط عن طاعة الناموس، إنّما أموات بالكامل

# العصا والجزرة

إن وضعنا وعاءً ممتلئًا باللحم أمام عرين الأسد، ووعاءً آخر ممتلئًا بالدقيق، فماذا سيختار؟ بالتأكيد سيختار اللحم، لماذا؟ لأنّه ببساطة حيوان لاحم لا يأكل الدقيق. وبالطريقة نفسها، إذا خُيّرنا نحن البشر بين مصلحتنا الشخصيّة وأيّ شيء آخر، فسنختار مصلحتنا، لأنّنا نحمل طبيعة أنانيّة متمركزة حول الذات، حتّى إنّ أعظم أعمال الخير والتضحية التي نقوم بها متجذّرة في محبّتنا لأنفسنا قبل أيّ شيء آخر.

في المسلسل الكوميدي «الأصدقاء» قام جُوي بتحدّي فيبي أن تجد عملًا واحدًا خاليًا من محبّة الذات يُمكننا القيام به، ولكنّها عجزت عن الإتيان بمَثَل واحد طوال الحلقة. في النهاية، سمحت لِنَحْلة أن تلسعها وتؤلمها لكي تتباهى تلك النحلة أمام صديقاتها، وهذا الفعل، على ما يبدو، خاليًا من محبّة الذات! لكنّ جوي أوضح لها أنّ تلك النحلة ستكون على الأغلب قد ماتت الآن. وعلاوةً على ذلك، فإنّ فيبي سمحت للنحلة بلسعها لكي تربح التحدّي. بالتالي، إنّ هذا الفعل غير خالٍ من محبّة الذات أيضًا. يعكس هذا المثال الكوميديّ البسيط

حقيقة صارخة أثبتها تاريخنا، وهي أنّ الإنسان في تقديمه للخير وتفضيل مصلحة الآخرين على مصلحته، إنّما يبحث عن ذاته وعن سعادته الشخصيّة ليس إلّا. لذلك، فإنّ أفعال الخير أو الشرّ التي يرتكبها الإنسان، متجذّرة في حاجة الإنسان إلى التعويض عن النقص الذي يُدركه في ذاته، هذا النقص الذي يعلن له عدم استحقاقه للحبّ وللقبول من الله ومن الآخرين. حتّى أولئك الذين يُضحّون بأنفسهم في سبيل أوطانهم، هم أيضًا يفعلون ذلك من أجل المجد الذي تجلبه تلك التضحيّة لهم حتى ولو بعد مماتهم. فما دام الإنسان يحمل هذه الطبيعة الرديئة الفاسدة، فهو غير قادر على إنتاج أيّ صلاح صافٍ لا تشوبه أنانيّة.

إحدى الطرق التي يتبعها صيّادو الذئاب، هي أخذ سكّين ووضعه في وعاء ممتلئ بالدم، ثمّ تجميده وإعادة الكرّة مرّات عديدة حتى تتكوّن طبقة كثيفة من الدم حوله. بعد ذلك، يقوم الصيّاد بغرز السكّين في الأرض مُنتظرًا أن يأتي الذئب ويشتمّ رائحة الدم. وعندما يجد الذئب السكّين، يبدأ بلعق الدم بشكل متواصل حتّى يتخدّر لسانه فيجرحه السكين من دون أن يشعر. بعد ذلك، يبدأ بالنزيف حتّى يموت. لقد

وضعت الأديان المختلفة أمام البشر فخًّا شبيهًا بهذا السكّين، عندما أقنعتهم بأنّ فعلهم للخير للحصول على التبرير أمام الله، هو أمرٌ عاديّ، وبأنّه لا توجد مشكلة في أن تكون كُلّ أعمالنا التي نُقدّمها لله أو لأخينا الإنسان مدفوعة ببحثنا عن خلاص أنفسنا. لقد حوّلتنا هذه الاستراتيجيّة لمتديّنين «زومبي» لا نخجل أن نعلن بصراحة عن نيّاتنا ودوافعنا الأنانيّة التي تختبئ تحت غطاء خادع اسمه (خدمة الله). وبدلًا من أن تُعالج الأديان دوافعنا الخطأ كما تدّعي، قامت بتعزيزها وبالثناء عليها كأنّها فضلٌ نستحقّ عليه الأجر والثواب.

تكشف استراتيجيّة الترهيب والترغيب (الترغيب بالنعيم والترهيب من الجحيم) الغطاء عن طبيعة الإنسان الضالّة التي لا ترى حقيقة الله السامية وجوهره العظيم، وتجعل من الله سيّدًا غاضبًا متقلّب المزاج، يطلب من الإنسان أن يُنافق وأن يفعل الأشياء التي لا يُريد فعلها من أجل الحصول على الجائزة، وأن لا يفعل الأشياء التي يُريد فعلها، فقط لأنّه يُريد أن يتفادى العقاب.

ظهر مُصطلح العصا والجزرة في أوروبا بين مُروّضي الحيوانات للتعبير عن مبدأ الثواب والعقاب الذي كان يُستعمل لدفع

الحمار إلى السير في الاتّجاه المطلوب. والطريقة بسيطة تتمثّل في ربط جزرة بعصا ووضعها أمام الحمار لكي يسير في اتجاهها. إنْ رفض الحمار المسير نحوها يُضرب بعصا أخرى يحملها الراكب بيده. هذه الطريقة التي استعملها الإنسان لترويض الحيوانات، هي نفسها التي وقع الإنسان ضحيّةً لها بوساطة الدين، فأصبح المُحرِّك الرئيسي له هو إمّا الثواب أو تفادي العقاب.

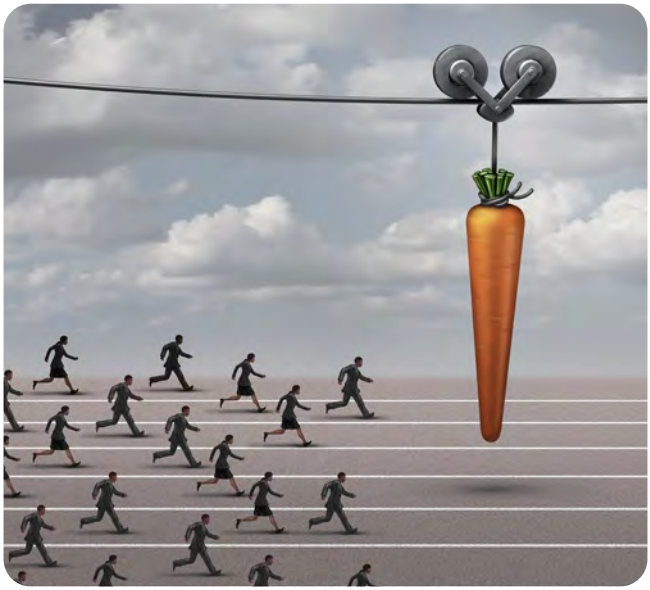

## المسيح الذي أطعمني الجزرة

أظهرت إحدى الإعلانات التلفزيونيّة أمًّا تطلب من طفلها عدم إحضار جهازه اللوحيّ iPad إلى غرفة الطعام على الإطلاق، وهي في الوقت عينه تمنعه من إدخال الطعام إلى غرفة اللعب. فماذا فعل الطفل؟ جلس الطفل في الوسط بين الغرفتين حاملًا جهازه اللوحيّ بيده من ناحية غرفة الألعاب، ووضع صحن الطعام في غرفة الطعام. وهكذا التزم الطفل بالقانون، لكنّه في الحقيقة كان يكسر في الوقت نفسه الهدف الذي وُضع القانون لأجله. لقد ابتكر الإنسان طُرقًا للتحايل على القوانين التي يظنّ أنّ عليه الالتزام بها ليكسب رضى الله. فقد أباح أحد الشيوخ المسلمين لمن يُريد أن يفطر في يوم رمضان، أن يقطع مسافة ٢٥ كيلومترًا في السيارة لكي يصبح إفطاره مقبولًا، حيث إنّ السفر تلك المسافة يعطي الصائم رخصةً لكسر صيامه. وفي تعاليم التلمود اليهوديّ، يُمنع على اليهوديّ أن يسير لمسافة تتجاوز الكيلومتر الواحد تقريبًا بعيدًا عن مدينته يوم السبت. وللتحايل على هذا الأمر، سمح رجال الدين اليهود لمن يُريد المسير أكثر من تلك المسافة يوم السبت، أن يسير يوم الجمعة لمسافة كيلو متر خارج حدود المدينة، وأن يترك قطعة من لباسه أو من أغراض بيته في ذلك الموضع لكي تصبح

حدود المدينة أبعد، فيتمكّن يوم السبت من المسير إلى وجهته المعهودة من دون أن يكسر الوصيّة. وهنالك آلاف الأمثلة الأخرى التي توضّح كيف يُمكن لنا أن نتحايل على القانون بكُلّ سهولة، وأن نُفلت من عقوبته في الوقت نفسه. ومن أجل كلّ هذا، فإنّ حكمة الله لا يُمكن أن تُقدِّم للإنسان حلًّا لا فائدة تُرجى منه. فضلًا عن ذلك، إنّ هدف الله الأسمى ليس إخضاع الإنسان لسلطته ولقانونه، بل إعادة إحياء العلاقة معه التي أفسدها الإنسان بسقوطه. ولا يُمكن أن تُبنى هذه العلاقة بواسطة النواميس والشرائع بسبب فساد طبيعة الإنسان أوّلًا، وبسبب عجز القانون وعدم شموليّته ثانيًا.

كانت حياة المسيح وموته كممثل شخصيّ لكُلّ من يؤمن الحلّ الإلهي الذي لا مثيل له بين كُلّ شرائع البشر. فعندما وقف الإنسان عاجزًا أمام محكمة السماء مُدانًا بطبيعة شرّيرة خاطئة، وحُكم عليه بالهلاك الأبديّ رازحًا تحت غضب الله، دخل المسيح إلى قاعة المحكمة وأخذ العقاب مكانه. وليس ذلك فقط، بل ترك للمُدان كلّ أملاكه الشخصيّة ميراثًا ليستمتع بها كما يشاء. لقد أطعَمَنا المسيح الجزرة (منحنا المجازاة قبل أن نعمل) ورمى بالعصا بعيدًا (أخذ العقوبة مكاننا) بعد أن

فتح أعيننا لنرى الوجهة التي أصبحنا نُحبّ ونريد أن نسير في اتجاهها. وإن ضللنا الطريق وسرنا عكسه، فهو موجود بلطفه وحنانه لكي يُقوّم لنا طُرقنا. أمّا العقوبة، فليس بالإمكان أن تحلّ علينا من جديد، لأنّ الله ليس بظالم ليُحاسب الإنسان مرّتين. لقد أغلقت المحكمة السماويّة أبوابها بعد أن ارتوت من دماء المسيح. وأصبحنا في عيني القاضي تمامًا كالمسيح الكامل بلا عيب. فقد باعد الله بيننا وبين خطايانا كبُعد المشرق عن المغرب، وهو غير ناظر إلى خطايانا بعد اليوم، ليس لصلاح فينا، وليس لأنّنا لا نرتكب الشرّ بعد ذلك، وإنّما بسبب العدالة الإلهيّة الكاملة التي اكتفت بما قدّمه المسيح من حياة كاملة احتُسبت لنا بواسطة نعمة الله.

إنّ مبدأ الثواب والعقاب مبدأ طفوليّ لا يصحّ استعماله في زمن نضوج الشريعة الملكيّة التي قدّمها المسيح، حيث المحبّة والتضحية بالذات هما القانون الأوحد، بل لا أقول «قانون» لأنّ المسيح قد تمّم كُلّ القوانين، بل المحبّة والتضحية بالذات هما طبيعة الله التي منحها الله لنا في الخليقة الجديدة، بعد أن أحيانا من موتنا الروحيّ. وهذه طبيعة لا تُخطئ ولا تفتكر بالشرّ ولا تبحث عمّا هو لها، وليس نحن من نجبرها على ذلك، بل هي

صالحة في ذاتها. إنها هويّتنا الجديدة التي يجب علينا أن نتمسّك بها. أمّا الهُويّة القديمة التي ما زالت تعيش فينا وترتكب الشرّ وتحارب طبيعتنا الجديدة وتنجح في كثير من الأحيان، فتلك لا تمثّلنا، وليس نحن الجُدد الذين نرتكب ما ترتكبه تلك الطبيعة القديمة الساكنة فينا، إنّما الخطيئة هي السبب. أمّا نحن، فقد أُعتِقنا من سُلطان الخطيّة، بمعنى أنّنا لم نعد نحيا لكي نُبرّر أنفسنا منها حيث قد سبق أن تبرّرنا منها بدم المسيح، ولكن نحن نحيا بغضّ النظر عن الشرور الفظيعة التي ترتكبها طبيعتنا القديمة ما ظهر منها وما بَطُن. نحيا ناظرين إلى مُكمّل الإيمان وشفيعنا العظيم، يسوع المسيح، الذي به لنا خلاصٌ كامل أبديّ لا يتزعزع ولا يتغيّر ولا ينقص إلى أبد الآبدين.

## هل نحيا كما يحلو لنا؟

نعم، كما يحلو لطبيعتنا الجديدة التي لا تشتهي الشرّ ولا تُريده، بل تكرهه وتتصارع معه، علينا أن نُدرك أنّه إن كُنّا في المسيح، فنحن بالفعل خليقة جديدة، ونيّاتنا صالحة تتوافق مع نيّات الله وطبيعته. نحن لا نُريد ما تفعله طبيعتنا القديمة ولا نُحبّه، بل نحن في صراع دائم بيننا وبينه. إنّ من يتّخذ من نعمة الله حُجّة لفعل ما تشاء طبيعته القديمة، هو شخص ما زال طبيعة

قديمة لم تتجدّد. ولكنّ الشخص الذي تصدر عنه أفعال تشبه الطبيعة القديمة، ولكن طبيعته الجديدة تئن وتتألّم في داخله، فهو خليقة جديدة مُسمّى على اسم المسيح، ولا دينونة عليه حتّى وإن تسرّبت أفعال الطبيعة القديمة فيه للخارج. فما دام الصراع موجود، فالروح موجود ليئن ويشهد أنّنا أبناء الله. يجب علينا أن نأخذ كلام الرسول يوحنّا حرفيًّا حين قال إن كُلّ من وُلد من الله لا يفعل خطيئة، وليس مجازيًّا أو كأنّها وصايا يتمنّى حدوثها. هذا هو الفرق بين الجسد والروح، من يسير في الجسد فهو من يؤمن بأنّ طبيعته القديمة تُمثّله. لذلك، فهو ما زال بحاجة إلى التبرير. ولكن من يسير في الروح فإنّه يؤمن بأنّ طبيعته القديمة لا تؤثّر في استحقاقات طبيعته الجديدة التي قدّمها له المسيح مجّانًا ليُعلن محبّة الله الآب لنا.

لا يُستخدم مبدأ العصا والجزرة عند الأديان المختلفة فقط، بل أيضًا في الكنائس التي تؤمن بنعمة الله في المسيح. لذلك، فإنّ الفهم الصحيح لما فعله المسيح من أجلنا ولنا وفينا كفيل بأن يطرد تلك العقليّة الطفوليّة من حياتنا إلى الأبد، وأن يؤسّس لعلاقة صحّيّة وسليمة قائمة على أساس إدراكنا لقداسة الله ولفسادنا ولتمام عمل المسيح ولهويّتنا الجديدة فيه.

٢٠فَإِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ، فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ
أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. ٢١ إِذًا أَجِدُ النَّامُوسَ لِي حِينَمَا
أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى أَنَّ الشَّرَّ حَاضِرٌ عِنْدِي. ٢٢ فَإِنِّي
أُسَرُّ بِنَامُوسِ اللهِ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ. ٢٣ وَلكِنِّي أَرَى
نَامُوسًا آخَرَ فِي أَعْضَائِي يُحَارِبُ نَامُوسَ ذِهْنِي، وَيَسْبِينِي
إِلى نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِي. ٢٤ وَيْحِي أَنَا
الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟
(رومية ٧: ٢٠-٢٤)

لقد وعد الله أنّه سينمّي طبيعتنا الجديدة في مواضع عدّة في كلمته. وهذا الوعد أمين وصادق ولا يتغيّر، بغضّ النظر عن مشيئة الجسد ومشتهياته. والكنيسة هي البيئة التي تنمو فيها هذه الطبيعة الجديدة عبر معرفة الله كما أعلن عنها، وعبر معرفة المسيح الذي نتوق أن نشابهه عندما نراه. ولكن على الرغم من ذلك، فإنّ النموّ يختلف من شخص لآخر، ولا يجب أن توضع القوانين للحُكْمِ على نموّ شخص مقابل شخص آخر. فالله هو الذي زرع تلك البذور وهو الذي سيُنمّيها. الحُبّ هو الغذاء الوحيد الذي تقتات عليه طبيعتنا الجديدة، وقد وفّره الله لنا في إنجيل المسيح. لذلك، يجب على الوعظ الذي ينمّينا

أن يكون مرتكزًا في كُلّ حين على ما فعله المسيح من أجلنا، ويجب ألا يُرفع صوت على منبر المسيح لا يذكر شخص المسيح وعمله النيابي بين كُلّ سطر وسطر. وبطبيعة الحال، لكي يُظهر الواعظ تلك المحبّة، عليه الخوض في بحر الحقّ الذي أسّس لها وأعطاها معنى وقيمة.

> الذئاب الحقيقيّون هم اولئك الذين شوّهوا الإنجيل، وهم أيضًا الذين يبدون الأكثر طاعة لله.
> لا أحد يستطيع النموّ والتقدُّم كأولئك الذين يؤمنون أنّ محبّة الله لهم غير مشروطة بتقدّمهم.

# النعمة والألم

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، خرج آلاف من الكارهين للولايات المتّحدة للاحتفال في شوارع دول كثيرة، مُعتبرين أنّ ما حصل هو انتقام من الله على سياسات الولايات المتّحدة. وعبّرَ عن هذه العقليّة ذاتها، أشخاص مختلفون احتفلوا عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ بعد سقوط رافعة على الحُجّاج المسلمين، وقتلها للمئات منهم في مكّة، في المملكة العربيّة السعودية، عام ٢٠١٥. إنّ جذور هذا الفكر مرتبطة بصورة الله المشوّهة المنتشرة في العالم. ويعتمد هذا الفكر على مبدأ معاقبة الله لشرور الأفراد والمجتمعات، بوساطة عوامله الطبيعيّة كالأعاصير والبراكين والزلازل، أو بواسطة أتباعه الذين يؤمنون به حيث يُسلّطهم على أعدائه. إنّ الخلل في هذه الفكرة متفرّع ومتعدّد الأوجه. أوّلًا، يجب علينا أن ندرك أنّه لا يوجد عند الله أصدقاء وأتباع مدلّلون بين كُلّ البشر. فغضبه يشمل الجنس البشريّ بأكمله من دون استثناء، لأنّ كُلّ من وُلِد من آدم شريك في الدينونة التي حلّت عليه. ثانيًا، ليست عقوبة الله للبشر في تسليط الآلام عليهم من خلال الطبيعة

أو من خلال تسليط بعضهم على بعض، بل إنّ العقوبة هي الهلاك الأبديّ والموت الروحيّ، بعيدًا عن الله في ظلام أبديّ لا يوصف. لذلك، فإنّ أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أو حادثة الرافعة في مكّة، أو كُلّ الحوادث المؤسفة التي تصيب الأفراد والمجتمعات حول العالم كُلّ يوم، لا ترتقي إلى مستوى العقوبة التي نستحقّها، ولا يجب أن ننظر إلى مثل هذه الأمور على أنّها صادرة من الله بدافع العقاب. فالعقاب الحقيقيّ جاء وانصبَّ على المسيح فوق الصليب مكان كُلّ من قرّر الله أن يفديهم.

وعلى المقياس نفسه، هنالك من يظُنّ أنّ الآلام التي تُصيب المؤمنين قد تكون نتيجة خطيّة ارتكبوها. وليس هذا التعليم خطأً فحسب، بل هو تجديف ضدّ الله وإهانة لصليب المسيح في الوقت نفسه، إذ تمّت تلبية متطلّبات عدالة الله بشكل نهائيّ وقاطع، عندما حمل المسيح اللعنة التي نستحقّها نحن. وليس ذلك فقط، بل إنّ البركات التي يستحقّها المسيح نتيجة حياة البرّ الكامل التي عاشها صارت جميعها لنا أيضًا. ففي المسيح تجد كلّ البركات والوعود مقرونة بالأمين، لأنّه هو الأمين وضمان الأمين (٢ كورنثوس ١:٢٠)، أي أنّ الموافقة

على كلّ بركات الله لنا قد تمّت، لأنّ المسيح الذي يستحقّها وهبنا إيّاها مجّانًا.

بناءً على ذلك، لا عقوبة على من هم في المسيح إطلاقًا، بل كُلّ ما يُصيبهم هو بركة بغضّ النظر عن الشكل الذي تأخذه تلك البركة. وفوق ذلك، نعود إلى النقطة السابقة وموضوع الطبيعتين، فلا يُمكن أن يُعاقب الله طبيعتنا القديمة التي احتمل المسيح دينونتها مرّتين، ولا يُمكن أن يُعاقب طبيعتنا الجديدة النقيّة الصافية. إنّ القول بأنّ الآلام التي تصيب مَنْ هم في المسيح هي نتيجة خطاياهم إهانة لما فعله المسيح مكاننا على الصليب، وتقليل من قداسة الله التي اكتفت بما فعله المسيح وتحترم ما منحنا إيّاه على الصليب مجّانًا.

إنّ الآلام التي تحلّ بالعالم هي نتيجة السقوط كما رأينا في الفصل الأوّل، ولكنّها أيضًا ضمن مخطّطات الله الصالحة للخليقة. والآلام التي تصيب الذين هم في المسيح، هي بركة حقيقيّة منحنا إيّاها الله، وهي جزء من خطّته العظيمة لنا، نحن الذين نثق بمحبّته وصلاحه وعدالته وصدق وعوده. فالذي أنقذنا في المسيح من دون أيّ دور أو فضل منّا، هو ذاته الذي منحنا البركات التي يستحقّها المسيح. ووعود الله

وعطاياه مجّانية وبلا ندامة. لذلك، فإنّ ثقتنا بالله نابعة من طبيعته المتّسقة مع ذاتها والتي لا تتغيّر ولا تتأثّر إلّا بذاتها.

لِتَصِيرَ بَرَكَةُ إِبْرَاهِيمَ لِلأُمَمِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لِنَنَالَ بِالإِيمَانِ مَوْعِدَ الرُّوحِ. (غلاطية ٣:١٤)

# التخلّص من الدين

في نهاية السبعينيّات من القرن الماضي، كان بوب نيستا مارلي في قمّة نجاحه. فبعد أن أطلق عشرة ألبومات غنائيّة منها Rasta Man Vibration الذي جعل من بوب مارلي النجم الأبرز في العالم الثالث، مرورًا بـ Up Raising ومن ثمّ نجاح Redemption Song وانتهاءً بـ Legend، الألبوم الذي حقّق أرباحًا فاقت الـ ١٨٠ مليون دولارًا أمريكيًّا، أصبح بوب مارلي الفنّان الأعظم تأثيرًا في العالم كما وصفته النيويورك تايمز. وتمّ إطلاق لقب (ألبوم القرن) على ألبومه Exodus، كما تمّ منحه جائزة الغرامي اوورد، ونُقش اسمه في جادّة مشاهير هوليوود في مدينة لوس أنجلس.

وفي صيف العام ١٩٧٧، أصيب بوب بجرحٍ في إصبع قدمه خلال ممارسته لرياضة كرة القدم. تمّ علاج الجرح، ولكنّه لم يلتئم، وكانت النتيجة أن أصيب بسرطان جلديّ نما تحت إظفره، وكان لا بدّ من استئصال ذلك الإصبع للقضاء على الورم قبل أن ينتشر إلى باقي الجسم. ولكن كانت هنالك مشكلة. ففي العام ١٩٦٦، اعتنق بوب مارلي ديانة الرستفاريّة، وهي ديانة نشأت في جامايكا في القرن الثالث الميلاديّ، وكانت هذه الديانة تُحرّم

أتباعها بتر الأعضاء مهما كانت الأسباب. لذلك رفض بوب مارلي استئصال إصبع قدمه المتورّم. بالتالي، انتشر الورم إلى باقي الجسد فضرب رئتيه، ومن ثمّ ضرب دماغه واستمرّ في الانتشار إلى أن توقّف قلب الأسطورة بوب مارلي عن النبض في أحد مستشفيات مدينة ميامي في ولاية فلوريدا في الحادي عشر من أيّار من العام ١٩٨١ وكان عمره ٣٦ عامًا فقط.

تشبه القوانين التي تحكم حياة أشخاصٍ كثيرين اليوم ذلك القانون الذي التزم به بوب مارلي، وكان السبب في القضاء عليه وهو شاب صغير في قمّة نجاحه. أذكر كيف كُنت أتوجّه إلى المسجد في الظلام الدامس وفي البرد الشديد ابتغاءً لمرضاة الله. كم شخصًا يُضحّي بمستقبله ونجاحه وعمله وعائلته لكي يُرضي الله، وكم شخصًا يقرأ كتابه المُقدّس أو يُطيل في الصلاة أو يمتنع عن طعام ما أو مشروب ما لكي يُرضي الله؟ قدّم الفنان المصري أحمد الفيشاوي في فيلمه الأخير (الشيخ جاكسون) هذا الأمر بصورة جميلة، حيث لعب دور شيخ متديّن يريد إرضاء الله وتفادي عقابه. لذلك يسجن في داخله عشقه لمايكل جاكسون وللموسيقى. لكنّنا نرى خلال أحداث الفيلم كيف أنّ الدين لم يستطع أن يكبت الحياة التي كانت تنبض داخله. كم من

متديّن يقضي الليل في البكاء أمام الله لكي يغفر له ذنوبه؟ ولكن من المؤسف أنّ دموع التوبة تلك، لا تفيد أمام عدالة الله بلا كفّارة. لدى كلّ شخص لا يُدرك طبيعة الله وطبيعة الإنسان ورم سرطانيّ، وعليه أن يستأصله بغضّ النظر عن رأي الدين في ذلك، وإلّا أفنى حياته هباءً. ولدى كلّ من لا يُدرك كمال عمل المسيح من أجله سرطان يجب عليه استئصاله، وإلّا سينتشر ويقضي على استحقاقات المسيح في حياته. لقد حرّرنا المسيح من العبوديّة، وعلينا أن نستأصل كُلّ ورم دينيّ يمنعنا من تلك الحُرّية بحُجّة أنّها إستغلال لنعمة الله. علينا أن نثق بالطبيعة الجديدة التي وهبها الله لنا، وعلينا الثقة بسيادته بواسطة عمل روحه القدّوس. من يخاف من نعمة الله، سيقضي حياته في الخوف، وسيُبقي الخوفُ محبّةَ الله خارجًا بلا شكّ، وسيحرمنا من التمَتُّع بعلاقتنا مع الله بالشكل الصحيح، وسنبقى سجناء لعدم اليقين، ومهزوزين بلا صخرة ثابتة نقف عليها.

قال الفيلسوف الفرنسيّ روبرت كامو: «من الأفضل لي أن أعيشَ حياتي وكأنّ هنالك إلهًا وأموت ولا أجده، على أن أعيش حياتي وكأنّه ليس هنالك إله ثم أموت وأجده.» رغم سخافة هذا القول، حيث إنّ الإيمان بوجود الله هنا يبدو مقامرة ليس

أكثر، إلّا أنّه يُشبه حالة مَنْ عرف نعمة الله لكنّه ما زال يعيش وكأنّ المسيح لم يُتمّم العمل بالكامل بالنيابة عنه. فتجده وكأنّه يقول: «أفْضل لي أن أعيش حياتي وأنا أقوم بالجزء المطلوب منّي للخلاص، ومن ثَمّ أموت لأجد المسيح قد تمّم العمل بالكامل، على أن أعيش وكأن المسيح قد تمّم العمل بالكامل بالنيابة عنّي ومن ثمّ أموت لأجد بأنّ هنالك نواميس وطقوس وفرائض كان عليّ تأديتها.» أيّة علاقة بالله سيبنيها من يُفكّر بهذه الطريقة؟ وأيّ ثمرٍ خالٍ من التمحور حول الذات سينتج عنه؟

> ما يُحدّد هويّتك، حسب الأديان، هو قدرتك على أن تكون شخصًا جيّدًا، بينما في المسيحيّة فإنّ هوّيتك مبنيّة على ما فعله المسيح من أجلك.

# ارمِ الصليب واتبعني

٢٨مَنْ مِنْكُمْ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بُرْجًا لاَ يَجْلِسُ أَوَّلًا وَيَحْسِبُ
النَّفَقَةَ، هَلِ عِنْدَهُ مَا يَلْزَمُ لِكَمَالِهِ؟ ٢٩ لِئَلاَّ يَضَعَ الأَسَاسَ
وَلاَ يَقْدِرَ أَنْ يُكَمِّلَ، فَيَبْتَدِئَ جَمِيعُ النَّاظِرِينَ يَهْزَأُونَ بِهِ،
٣٠ قَائِلِينَ: هذَا الإِنْسَانُ ابْتَدَأَ يَبْنِي وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُكَمِّلَ.
٣١ وَأَيُّ مَلِكٍ إِنْ ذَهَبَ لِمُقَاتَلَةِ مَلِكٍ آخَرَ فِي حَرْبٍ، لاَ
يَجْلِسُ أَوَّلًا وَيَتَشَاوَرُ: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُلاقِيَ بِعَشَرَةِ آلاف
الَّذِي يَأْتِي عَلَيْهِ بِعِشْرِينَ أَلْفًا؟ ٣٢ وَإِلاَّ فَمَا دَامَ ذلِكَ بَعِيدًا،
يُرْسِلُ سِفَارَةً وَيَسْأَلُ مَا هُوَ لِلصُّلْحِ (لوقا ١٤:٢٨-٣٢).

تحدّث المسيح بهذه الكلمات للجموع الغفيرة التي كانت تتبعه. فقد رأى في اتّباعهم له مشروعًا هم على وشك الانخراط فيه. ولكن قبل أن يفعلوا ذلك، عليهم الجلوس والتخطيط جيّدًا ليحسبوا التكلفة ويروا إن كان بإمكانهم تتميم العمل أم لا. لذلك ابتدأ المسيح يوضّح رأس المال المطلوب لإتمام مشروع الخلاص الذي تبعته الجموع بحثًا عنه. فماذا قال لهم؟

٢٦«إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ

وَأَوْلادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا. [٢٧] وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا...[٢٨] فَكَذلِكَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لاَ يَتْرُكُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ، لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا. (لوقا ١٤:٢٦-٣٨).

امتاز تعليم المسيح بالاتّساق والتناغم عبر كلّ صفحات العهد الجديد، وتمحورت تعاليمه حول كشف بطلان تفاسير رجال الدين اليهود السطحيّة لتعاليم موسى، ومن ثَمَّ رفع السقف عاليًا لتوضيح غاية الناموس وجوهره. فلمّا فُسّر كلام موسى عن الزنى في الناموس بأنّه الممارسة الجنسيّة، قال المسيح إنّ مجرّد النظر بشهوة هو كسر للناموس. أمّا بالنسبة إلى القتل، فإنّ الكراهيّة في القلب هي جريمة قتل تستحقّ الجحيم. بهذه الطريقة، وضع المسيح الجميع أمام الواقع المُرّ، وهو أنّهم جميعًا مدانون أمام الناموس، كما رأينا في الفصل السابق. وفي الوقت نفسه، كان هذا التفسير الجديد المُعطى في كلّ وصايا المسيح في العهد الجديد هو متطلبات الله التي يجب على من يبتغي الخلاص طاعتها. فماذا كان ردّ فعل من سمعوا المسيح؟ من يستطيع إذًا أن يخلُص؟ (لوقا ١٨:٢٦)

## من يستطيع أن يخلُص؟

لا أحد يستطيع أن يخلُص، وطاعة كُلّ النواميس التي طلبها الله أمر مستحيل. وطاعة جزء منها غير كافٍ للخلاص. لذلك، على من يُريد الخلاص أن يحمل الصليب أوّلًا وأن ينسحق تحت دينونة الله العادلة. لقد جعل المسيح من الحصول على الخلاص أمرًا مستحيلًا بأيّة طريقة من الطرق حتى يُحضِّر أتباعه لقبول فدائه لهم. لم يأتِ المسيح ليزيد على الوصايا التي أعطاها موسى. لقد فشل العالم في طاعة ناموس موسى الطفوليّ، وإعطاء ناموس ملوكيّ جديد أمر غير منطقيّ. لقد كانت غاية المسيح أن يُلقي كلّ أتباعه صليب الخلاص عن ظهورهم ليحمله هو بالنيابة عنهم كطريقة وحيدة للخلاص، وكحلٍّ إلهيّ يفوق مستوى تصوّر البشر تتلاقى فيه عدالة الله مع محبّته غير المتناهية.

ولكن يقول قائل: أَلَمْ يُعطنا الله في الولادة الجديدة طبيعة قادرة على طاعة وصايا المسيح بقوّة الروح القُدُس؟ والإجابة هي بالطبع نعم. فالطبيعة الجديدة في الأصل تُحبّ أمور الله وتفرح بالحقّ والخير، ولكن سبق لهذه الطبيعة أن نالت الخلاص بالفعل، وسعيها إلى طاعة وصايا المسيح أمرٌ بديهيّ. فكما أنّ وصايا الله الأخلاقيّة التي أعطاها لموسى صالحة وعظيمة وعلينا

اتّباعها، وصايا المسيح أيضًا عظيمة، بل هي أعظم من وصايا موسى لأنّها تُظهر الجوهر الحقيقيّ للناموس، وتتوق طبيعتنا الجديدة إلى تنفيذها، ولكن الصليب (الشقاء) الذي نحمله في حربنا مع الجسد، لا علاقة له بصليب الخلاص الذي ينبغي علينا أن نرميه، وأن نترك المسيح يحمله وحده لكي نخلُص.

تنبع رغبة الإنسان في حمل صليب الخلاص من محبّته لذاته، فهو يُريد أن يحمل صليب الخلاص لكي يُنقذ نفسه بنفسه. بالتالي، فإنّ حمله للصليب، إن حدث أصلًا، وهو أمر غير ممكن، سيكون ناتجًا عن دافع خطأ يجعل من الإنسان نفسه مركزًا لأعماله. تنسف هذه المعادلة ذاتها بكلّ بساطة. لذلك، لا يوجد أيّ تفسير لطلب المسيح من أتباعه أن يحملوا الصليب وأن يتبعوه، إلّا تعجيزهم ووضعهم في المواجهة مع الواقع المستحيل. وهو الدور نفسه الذي لعبه ناموس موسى كمُحضّر لمجيء المُخلّص. وحينها فقط سيستسلم الإنسان أمام عظمة متطلّبات الخلاص، ويترك الأمر للمسيح فقط من دون أي تدخُّل منه سوى بالخطيئة التي جعلت خلاصه مطلوبًا.

سيكتشف من يأتي للمسيح بسهولة أنّه قد جاء نتيجة عمل الله فيه وليس بإرادته الشخصيّة. فالإنسان، كما سلف، كاره

لله ومتمرّد عليه، ولا يوجد إنسان يقبل أن يعبُد ربًّا مصلوبًا إن كان الأمر متروكًا له. ومن يأتي إلى المسيح بحثًا عن الخلاص فقط، فهو آتٍ من أجل نفسه وليس محبّة بالله. لذلك، لا أحد يأتي للمسيح إن لم يجتذبه الآب أوّلًا ليحرص على أن يكون المسيح بالنسبة لمن أتى إليه ليس مُجرّد جسر للعبور للخلاص، بل ليرى أنّ الخلاص ذاته هو المسيح، وأنّ معرفة الله هي غاية كُلّ الوجود. "وهذه هي الحياة الأبديّة: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يوحنّا ١٧:٣).

لا يمكن لنا أن نحمل الصليب. فالمسيح هو الممثّل الوحيد لنا القادر على تنفيذ كلّ متطلّبات الخلاص وتتميمها وتسجيلها باسمنا من دون استحقاق. نحن لا نستطيع أن نأتي إلى المسيح. المسيح يأتي بنا مثل الخروف الضال. هو يُحضِرنا وينقذنا، وهو يعطينا الخلاص هديّة مجانيّة من دون أيّ مقابل على الإطلاق. هذا يعني أنّ الصليب بالنسبة إلينا هو الموت الأبديّ. والمسيح وحده هو من يستطيع أن يموت على الصليب وأن يقوم من أجلنا. هو الذي مات من أجل غفران خطايانا وقام من أجل تبريرنا.

قال المسيح إنّ أيّ ملك يريد محاربة ملك آخر يجلس أوّلًا

ويتشاور إن كان يستطيع هو وجيشه أن ينتصروا في المعركة. وإن كان لا يستطيع أن ينتصر، حينها يبعث رسولًا للصلح. نحن لا نستطيع أن ننتصر على الموت، فلنكن حكماء وليكُن المسيح رسولنا للصُلح مع الله. لنرم الصليب عن ظهورنا، ولنترك المسيح يحمله بالنيابة عنّا، لأنّه هو الوحيد الذي انتصر على سلطان الظلام بموته وقيامته، ولنسترح في محبّته ونعمته غير المشروطة. لندع المسيح يتمّم العمل الذي لا يمكن لنا أن نتمّمه من دون أن ننسحق أمام الله القدوس العادل يوم الدينونة. المسيح وحده ممثّلنا أمام الله حامل صليب آلامنا الذي به شفاؤنا، وبقيامته حريّتنا وحياتنا للأبد.

## كُلّنا متشابهون

دُعيتُ مع أحد الأصدقاء لحضور اجتماع للصلاة في منزل إحدى السيّدات. وعندما وصلنا، فوجئت بكلّ التحضيرات التي قامت السيّدة بها. فهنالك شخص على الباب يقوم بأخذ الهواتف النقّالة، وفي داخل المنزل تمّ خفْت الإضاءة بشكل كبير مع وجود موسيقى هادئة يُمكن سماعها من أيّة زاوية في المنزل. ويقوم شخص آخر يقف عند باب غرفة الصلاة بإعطاء كتاب مُقدّس للواصلين. كان واضحًا أنّ هذه السيّدة

تفعل ما باستطاعتها لخدمة الله، وهو أمر مبهر وجميل بالنسبة للكثيرين، ولكن كان لديّ شعور مختلف من نحوها. وقد تأكّد هذا الشعور لاحقًا حين ابتدأت تلك السيّدة بالصلاة. فعندما استمعت إلى صلاتها بتركيز، وجدت أنّها أشارت إلى نفسها ثمانية وثلاثين مرّة في صلاة واحدة لم تتجاوز الخمس دقائق: «شكرًا لأنّك باركتني، غيّرتني، أعطيتني، مكّنتني، قوّيتني..الخ». لقد كان واضحًا أنّ هذه السيّدة تشعر بأنّ ما تُقدّمه لله هو السبب في بركات الله لها. لاحقًا جاء دوري للصلاة فقلت: «يا ربّ، نحن نعلم أنّ سجودنا وصلاتنا وبكاءنا أمامك الآن لا يختلف شيئًا عمّا يفعله السكّيرون والزناة في الملهى الليليّ في الشارع المُقابل الآن، فكلّ أعمال الإنسان باطلة، وحتّى دموع توبتنا لا تنفعنا شيئًا إن لم يسترنا دم المسيح». لم أكن أهدف إلى مضايقة تلك السيّدة، بل كُنت أقصد ما قلته بإخلاص. بعد انتهاء وقت الصلاة، اقتربت منّي السيّدة لكي تُقدّم لي الضيافة الفاخرة التي أعدّتها وقالت بشكل واضح: «أنا لا أقبل ما قلته بأنّنا نحن والسكّيرين والزناة متشابهون في عينَي الله. كيف يمكن أن يكون ذلك ونحن نخدم الله بينما أولئك يخدمون أنفسهم؟»

لقد طلب الربّ من النبي يونان أن يذهب إلى مدينة نينوى لكي يُعلن الهلاك الذي سيأتي به الله عليهم نتيجة شرورهم. ولكن بدلًا من ذلك، هرب يونان من أمام وجه الله، لماذا؟ لأنّه كان واعيًا لتاريخ شعب إسرائيل كيف أنّ الله رحمهم رغم فشلهم المتواصل في طاعته. لقد علم يونان يقينًا أنّ الله سيرحم شعب نينوى، وهو لا يُريد ذلك لأنّه كيف يُمكن لأمّة غريبة أن تتساوى مع شعب إسرائيل الذي سُمّي على اسم الله. لقد ظهرت نيّة يونان ودوافعه للهرب في آخر السفر حين قال: [٢]«عَلِمْتُ أَنَّكَ إِلهٌ رَؤُوفٌ وَرَحِيمٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَنَادِمٌ عَلَى الشَّرِّ. [٣] فَالآنَ يَا رَبُّ، خُذْ نَفْسِي مِنِّي، لأَنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي» (يونان ٤:٢). لقد اعتبر يونان الامتيازات التي منحه إياها الله مع باقي شعب إسرائيل أمام الأمم والشعوب الأخرى بعظمة حياته ذاتها، وإن أخذ الله هذا الامتياز، فلا معنى لحياته بعد ذلك. لقد انتابني هذا الشعور مرّات عدّة حين كُنت أجهل معنى الإنجيل الحقيقيّ. أذكر في إحدى المرّات بأنّني كُنت أصطاد السمك بالقرب من شارع معروف برُوّاده الذين يحبّون السهر والمجون. كنت أذهب برفقة أحد الأصدقاء إلى ذلك الشارع للبحث عن أيّة فرصة لمشاركة الإنجيل مع الموجودين هناك. وفي إحدى الليالي، وبعد أن تحدّثت إلى

أحدهم عن المسيح لما يزيد عن الساعتين، ابتدأ الرجل بالبكاء وقال إنّه لا يعلم ما الذي حدث له، ولكنّه يشعر بأنّ هنالك قوّة غريبة قد حلّت عليه، وبأنّه يشعر بالفرح يغمر كيانه. في الحقيقة، لم أفرح معه في تلك اللحظة، بل انتابني الغضب، لأنّه كيف يُمكن لهذا الشخص الذي قضى حياته في الدعارة ولم يحرم نفسه من شيء أن يأخذ الامتيازات نفسها التي لديّ بهذه البساطة، وأنا الذي أقضي أغلب وقتي في خدمة الله وإخبار الناس من حولي عنه، والصلاة والصوم والالتزام بحضور الكنيسة وأصارع ضدّ الشهوات؟ لقد شعرت بأنّي أريد أن أهرب كما هرب يونان لكي لا يكون أمام هذا الوثنيّ فرصة ليُصبح مثلي وأن ينال بكلّ سهولة الدرجة نفسها التي نلتها أنا.

> نحن ثابتون بقوّة في عمل المسيح الكامل، في قوّته وليس في قوّتنا، بما فعله من أجلنا وليس ما نفعله من أجله، بانتصاره هو من أجلنا وليس في انتصارنا نحن من أجله.

# الخوف من الإنجيل

لماذا يُحصِّل سائق سيارة الأجرة في نيويورك ما معدّله ١٣٠ دولارًا يوميًّا خلال الصيف والشتاء، مع أنّ عدد الأشخاص الذين يستعملون سيارات الأجرة في الشتاء يتضاعف؟ اكتشف عالم النفس دانيال كاهنيمان أنّ السبب وراء ذلك يعود إلى أنّ سائقي سيارات الأجرة مدفوعون بتفادي الخسارة أكثر ممّا هم مدفوعون بالبحث عن الربح. هذا يعني أنّ المبلغ الذي يحتاج إليه سائق سيارة الأجرة لدفع التزاماته وللاهتمام بعائلته هو ١٣٠ دولارًا، لذلك، يقضي ساعات طويلة في فصل الصيف وهو يبحث عن رُكّاب لكي يجمع هذا المبلغ. أمّا في الشتاء، فحين يكسب هذا المبلغ يتوقّف عن العمل. ما يُريده سائق السيّارة هو تفادي العقاب (الصعوبات) التي سيتعرّض لها إن فشل في الحصول على ذلك المبلغ، ولكنّه لا يكترث كثيرًا بأن يكسب مبلغًا أكبر على الرغم من وجود الفرصة لذلك في فصل الشتاء. والأمر شبيه بقانون العقوبات الذي تضعه المحاكم. فلجرائم القتل والسرقة والتزوير عواقب وخيمة. لذلك، فإنّ الناس حذرون جدًّا من الانخراط فيها، ولكن لا توجد عقوبات

على عدم مساعدة الفقراء مثلًا. لذلك، لا يكترث كثير من الناس لفعل ذلك الأمر. يشبه الابتعاد عن الجرائم هنا تحصيل الـ ١٣٠ دولارًا بالنسبة لسائق سيارة الأجرة، وهو أمر حتميّ يجب فعله وإلّا ستكون هنالك تبعات. ولكن مساعدة الفقراء مثل الحصول على أكثر من الـ ١٣٠ دولارًا بالنسبة للسائق. هي رفاهيّة لا يُجبَر أحد على فعلها.

رسالة الإنجيل هي أنّ الله في المسيح قد أمّن لنا الـ ١٣٠ دولارًا من دون أن نذهب إلى العمل أصلًا (**رومية ٤:٥**). بل أكثر من ذلك، لقد عمل مكاننا وحصل على استحقاقات كثيرة منحنا إيّاها مجّانًا. هذه الرسالة مخيفة وقد تكون سببًا ليتوقّف الناس عن فعل الأعمال الصالحة بسببها.

كلّ مرّة أُخبر أحدهم عن الإنجيل، أجد الاستجابة ذاتها: "هل هذا يعني أنّك لست مضطرًّا إلى فعل أي شيء؟" وإجابتي هي نعم، أنا لست مضطرًّا أن أعمل أيّ شيء لأتفادى العقوبة أو لأحصل على النعيم. فقد دُفِعت ديوني بالكامل وأنا أمتلك ما يكفي لكيلا أستدين للأبد. ولكنّي أعمل لأنّي أفرح بذلك، وتلك الأعمال أعملها إنطلاقًا من الحُبّ والفرح وليس من الخوف والاحتياج.

لم يطلب بولس الرسول من اللصوص الذين آمنوا بالمسيح التوقّف عن السرقة وحسب، بل قال إنّ عليهم أن يعملوا لكي يُعطوا المحتاجين. والسبب في هذا التغيير الراديكاليّ هو الإنجيل. ففي حين أنّ الفقراء يعملون لتفادي المتاعب فقط، وبعدها يتوقّفون عن العمل، يعمل الأغنياء باستمرار لأنّ دافعهم لم يعد الخوف. فيبقى الفقراء فقراء ويزداد الأغنياء غنًى. ونحن الذين أصبحنا أغنياء، نعمل بسبب المسيح، ليس لأنّنا مدفوعون بالخوف من العواقب أو بالطمع بالحصول على شيء لا نمتلكه بعد، بل لأنّنا امتلكنا كلّ شيء. فنحن نعمل من دون مقابل. أمّا الفقراء الذين لا يعلمون ماذا قدّم المسيح لهم، فما زالوا يعملون بدافع الخوف. وغالبًا ما تتوقّف أعمالهم عند حدود الامتناع عن السرقة، ولا يُكملون ليعملوا من أجل إعطاء من له احتياج.

## النعمة ثمّ النعمة ثمّ النعمة

أكثر الدول مشاهدةً للمواد الإباحيّة هي الدول الأكثر تديّنًا مثل مصر وأفغانستان. وتحتلّ الولايات المُتديّنة في الولايات المتّحدة المراتب المتقدّمة في الإحصاءات السنويّة في نسب مشاهدة المواد الإباحيّة. والعلاقة بين التديّن والانغماس في مشاهدة تلك

الأفلام واضح، والسبب في ذلك عائد إلى الطريقة التي يتمّ فيها التعامل مع الخطايا في المجتمعات الدينيّة.

أصبح واضحًا لدينا الفرق بين الخطيّة والخطايا. فالخطيّة هي الطبيعة الفاسدة التي ورثناها من آدم، والخطايا هي تلك الأعمال التي تصدر عن الطبيعة وتتّخذ أشكالًا مختلفة. ويصنّف كُلّ مجتمع تلك الأعمال بطريقة مختلفة. ففي الغرب مثلًا، لا تُعتبر الملابس الصيفيّة التي ترتديها النساء خطيئة، بينما في الشرق، يعتبر المسيحيّون تلك الثياب عينها خطيّة تُغضب الله. وينسحب الأمر على المشروبات الكحوليّة، ففي لبنان مثلًا، لا يوجد تشديد على ذلك الموضوع، بينما في الأردن، يُعَدّ احتساء الكحول جريمة عظيمة في نظر الكنيسة.

حين يتمّ التعامل مع الخطايا التي نرتكبها كما لو أنّها الخطيّة التي سنُدان عليها، هنا تحدث كُلّ التعقيدات وكُلّ المشكلات. كنت أستمع إلى أحد الوعّاظ وهو يستقبل أسئلة من الجمهور في أحد المؤتمرات. وحين سُئِل عن العادة السرّيّة، قال الشابّ إنّه يعاني من الاكتئاب بسبب ممارسته لتلك العادة، وإنّه يشعر بالذنب طوال الوقت، وإنّه فكّر بالانتحار فعليًّا. فماذا كانت إجابة الواعظ له؟ ربّما لو طُلب من الواعظ أن يأتي بأسوأ إجابة

على الإطلاق، لما كانت بسوء الإجابة التي أعطاها. قال للشابّ إنّ العادة السرّية خطيّة تُغضب الله، وأنّ عليه أن يمارس الرياضة لكي يتوقّف عن ارتكابه ذلك العمل المخزي. لقد كان الأمر صادمًا جدًّا بالنسبة إليّ لأنّ التمارين الرياضيّة ليست الحلّ؛ الإنجيل هو الحلّ. لو قال الواعظ للشابّ أنّه رغم ممارسته لذلك الفعل، هو محبوب ومقبول من الله بسبب المسيح، ألن يمنح ذلك الشاب القوّة للتغلّب على إحباطه أوّلًا قبل الإنتقال لمحاربة تلك العادة؟

تحدّث بولس الرسول في الإصحاح السادس من رسالته الأوّلى إلى أهل كورنثوس إلى الكنيسة معاتبًا إيّاهم على الظلم الذي يُسمّى بينهم، وعلى السلب الذي يقترفه أحدهم ضدّ آخر. ثمّ قال لهم بولس: ٩أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ؟ لاَ تَضِلُّوا: لاَ زُنَاةٌ وَلاَ عَبَدَةُ أَوْثَانٍ وَلاَ فَاسِقُونَ وَلاَ مَأْبُونُونَ وَلاَ مُضَاجِعُو ذُكُورٍ، ١٠ وَلاَ سَارِقُونَ وَلاَ طَمَّاعُونَ وَلاَ سِكِّيرُونَ وَلاَ شَتَّامُونَ وَلاَ خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ، ١١وهكذا كان أناس منكم. لقد شمل بولس الممارسة التي يرتكبها أهل كنيسة كورنثوس، وهي الظلم مع الزنى وعبادة الأوثان والفسق ومضاجعة الذكور، وكان حازمًا في قوله إنّ من يرتكبون مثل

هذه الأفعال لا يرثون ملكوت السماوات. فهل قصد بولس أنّ الظالمين والسالبين في كنيسة كورنثوس لن يرثوا ملكوت السماوات؟ بالتأكيد لا، لأنّ كُلّ الرسالة تخاطبهم بالقدّيسين والمؤمنين بالمسيح المغفورة خطاياهم. إذًا فماذا؟ هل قصد بولس أنّ الأشخاص في كنيسة كورنثوس كانوا يمارسون هذه الأمور ولكنّهم تغيّروا؟ أيضًا لا، لأنّه قبل ثوانٍ قليلة، أظهر غضبه منهم على الظلم الذي ما زال يمارسه بعضهم ضدّ بعض. إذًا فماذا؟

يقول بولس الرسول إنّ هذه الأعمال التي تعملونها الآن يا أهل كورنثوس، هي مساوية تمامًا لتلك الأعمال التي يرتكبها أولئك الذي لم ينالوا الخلاص، ولو لم تكونوا في المسيح لكنتم مستحقّين العقوبة نفسها. [١١] «لكِنِ اغْتَسَلْتُمْ، بَلْ تقَدَّسْتُمْ، بَلْ تبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلهِنَا». والسبب أنّكم سترثون ملكوت السماوات رغم ممارستكم لأفعال (من يفعلها لا يرث ملكوت السماوات). هذا ما فعله المسيح فيكم ولأجلكم. لذلك، كان الحلّ بالنسبة إلى بولس من أجل الانتصار على الخطايا التشديدَ على أنّ [١٢] «كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي»، لكِنْ لَيْسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ. «كُلّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي»، لكِنْ لاَ يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ» (١ كورنثوس ٦: ١٢). لا توجد دينونة عليكم

بسبب هذه الخطايا لأنّكم افتُديتم من الخطيئة، ولكن لا يليق بمن يُسمّى على اسم المسيح أن يفعل هذا وذاك.

إنّ نموّ الإنسان في القداسة مترسّخ في معرفته بالإنجيل وليس في إدراكه لمتطلّبات الناموس. وإن لم نبدأ بالإنجيل دائمًا بتلك الرسالة التي تحمل الحُبّ الإلهيّ لنا، فكُلّ ما سنحصل عليه هو شعب خائف يفعل الخير للأسباب الخطأ. إنّ تبرير المسيح المجّاني لنا هو الرسالة القادرة على تغيير الفرد والمجتمع والعالم بأجمعه إنْ تمّ نشرها بلا خوف على الإطلاق.

وإجابتي لذلك الشابّ المُحبط الذي يمارس العادة السرّيّة هي أنّي لا أعلم إن كانت العادة السرّية خطيئة أصلًا. وإن كانت خطيئة فلا سلطة لها عليك لتُدينك. أنت جالس في غرفتك تمارس تلك العادة، أو تشاهد فيلمًا إباحيًّا... الناموس يجلس بجانبك ويرفع سيفَ الدينونة في وجهك... يدخل المسيح إلى الغرفة ويضع رأسه تحت ذلك السيف فيقع عليه ويميته ويَكسر سيف الدينونة... يقوم المسيح من بين الأموات ويجلس بجانبك... الآن، أنت تمارس تلك الخطيئة ولا دينونة عليك، والمسيح ليس غاضبًا، بل هو مسرور لأنّك أنت أحد الذين أعطاهم الآب له، وهو سيقودك وسيُقدّسك ليس لتمتنع عن

مثل هذه الأمور، بل لتفعل ما هو أعظم من ذلك بكثير من أجل مجده.

في النهاية، أقول إنّ رفض الإنجيل لا يعني عدم الإيمان بشخصيّة المسيح وتاريخيّة وجوده، بل هو إيماننا بالمسيح، وفي الوقت نفسه بناء علاقتنا بالله ومدى قبوله لنا على أساس ما نقدّمه نحن من أجله. وكلّ من يؤمن بالمسيح ويفعل الصلاح طمعًا بالحبّ والقبول من الله، فإنّه جاهل لمعنى الإنجيل. فالمسيح وحده هو الذي مُنحنا من خلاله حبّ الله وقبوله. وكُلّ من يؤمن بالمسيح ويتفادى الشرّ خوفًا من عقاب الله، فهو جاهل للإنجيل. لقد تجاوزتنا عقوبة الله حين ارتطمت بالحائط «المسيح»، وهدمته لكيلا تصيبنا. وكُلّ من يؤمن بالمسيح ويبني حجم الودّ بينه وبين الله على أساس أعماله وتضحياته وامتيازاته، فهو عدوّ للإنجيل. فالعلاقة بيننا وبين الله ثابتة لا تتغيّر، لأنّ مُثبّتها هو المُمثّل الرسمي لنا أمام الله وهو «المسيح». وكُلّ من يؤمن بالمسيح وتتوتّر علاقته بالله وتضطرب صعودًا ونزولًا، فهو لا يعرف الإنجيل. نحن ثابتون إلى الأبد بلا تزعزع ولا اختلاف، لأنّ الذي أنقذنا من العقوبة هو ذاته من منحنا ثوبه الخالي من أيّ دنس. الإنجيل هو أنّ الله في المسيح

جعلنا أبناء وورثة، ولا شيء في السماء أو في الأرضي يخلع عنّا ثوب البنوّة، ولا حتّى نحن أنفسنا. وصراعنا من أجل الإنجيل هو أن يعلم العالم الذي يبحث عن الحبّ في كلّ مكان، أنّ المُحبّ الأعظم قدّم كلّ شيء مجّانًا وبلا شروط. ونحن في المسيح أطفال الله، لسنا أيتامًا بلا أب أو أم. وحين يأتي وقت الطعام، لا يهمّ إن كنّا منشغلين باللعب مع الأصحاب، أو كم سنعترض ونقاوم، فأمّنا الحنون ستأخذنا رغم إرادتنا لإطعامنا. هل تترك الأم رضيعها؟ حاشا! ومن المؤكّد أنّ أبانا السماوي يتحنّن علينا أكثر مما تتحنّن الأم على إبنها. نحن لسنا متروكين لأنفسنا لنقرّر إن كنّا سننمو أم لا. لسنا متروكين على قارعة الطريق بلا أب يحمينا. فنحن في المسيح مقبولون رغم بشاعتنا، وهذا هو سبب جمالنا! نحن عاجزون عن فعل أيّ شيء على الإطلاق نستطيع بسببه أن نخسر هذا الحبّ وهذه الرعاية، لأنّنا لم نكسبها في البداية بواسطة مجهودنا الشخصيّ. نحن في عينيه تمامًا مثل ابنه الحبيب الذي صنع كلّ شيء حسنًا. نحن نمتلك تلك القيمة التي أُعطيت لنا من دون مقابل، وستبقى معنا إلى الأبد بلا شروط. له كُلّ المجد إلى أبد الآبدين، آمين.

اللهمّ لا تتركني أنظر إلى شيءٍ في ذاتي طرفة عين
فأنا بقايا جُثّة أكلتها النسور، أقمتها أنت

مصلوب أنا أنزلته عن الخشبة يوم عُلّقت أنت

ميّتٌ أنا قد أنتن أحييته يوم قُمت أنت
فأنا التراب وأنتَ أنتَ

أنا قاتلٌ لم يسلم مِن طعْنِه أحد، قُتلت مكانه أنت
أنا لصٌ جاب البيوت والطُرق، دفعت ما سرقَه أنت

أنا صرخةُ غضبٍ تصرخ أنا أنا
وأنت سُحقت تصرخ «أنت، انت»

فكيف لي يا سيّدي أن أنظر إلى ذاتي
من قبل أو من بعد؟
وكيف أسمح لمنظر هذه الجثّة بأن يُحدّد صلاحيّة الوعد؟

أنت الوعد، وأنت القَبْلُ وأنت البَعْدُ

وأنت لست طريقي للخلاص بل خلاصي ذاته أنت
فانظر يا سيّدي طلبة عبدك ولا تُنسِني من أنا ومن أنتَ

خريطةُ طريقٍ صادقةٌ وشجاعة، تتحدّاكَ بقسوةٍ لكي تنمو في القداسةِ وأنتَ تغرَقُ بحبّ المسيح لا خوفاً منه. هذا هو الإنجيل.

القسّ طوني سكاف
راعي الكنيسة المعمدانيّة الإنجيليّة - بدارو

"ما يتضمّنه هذا الكتاب فريد من نوعه في لغتنا العربيّة."

القسّ الدكتور فيكتور عطا الله
مؤسّس خدمة الإصلاح الإنجيلي في الشرق الأوسط

"كان الفيلسوف ديجانوس الكلبي يحمل مِشعلًا ويسير به في الشوارع بحثًا عن رجل صادق، لكنّه أطفأه وعاد للبيت مبتسمًا بعد أن كتب داني برماوي هذا الكتاب. إن كنتَ متعبًا ومتألّمًا، إن كنت تشعر بالفشل، إن كان غضبك تجاه الله يُسيطر عليك وأنت على وشك النزول من عربة الدين، فهذا أمرٌ جيّد. خذْ هذا الكتاب واستسلم، واترك قطار الأذرع الأبديّة يأخذك حيثُ يشاء."

ستيف براون. كاتب ومقدّم برامج إذاعية،
بروفيسور في الدراسات اللاهوتيّة ومؤسّس خدمة KeyLife

500 PLUS

ISBN 9789953051482